المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السادس عشر بعد المئة

١ فبراير سنة ١٩٥٠ ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦٩

السر ارثر كيث

فتح دارون بدراسته العلمية العملية « تسلسل الأحياء » وتنوعها باباً واسعاً في العلم الحديث لأن نظريته أقنعت جميع أهل الفكر الحر ، كما أنها هاجت خواطر ذوي التقاليد القديمة المتحجرة . فقام على أثره بعض كبار المفكرين يبحثون في نظريته ، ويقلبونها على جميع صور الحياة ، ومن جملتهم هكسلي ، ثم بخنر الذي شرح النظرية ، ولخص شرحه لنا الدكتور شبلي شميل . ثم جعل الفيلسوف سبنسر يشتغل في الفلسفة على أساس نظرية دارون ، وأجملها في تفسير التطور في كتابه « المبادىء الأولى » . وأخيراً قام برغسن الفيلسوف الذي بنى فلسفته على « نظرية التطور » .

وأخيراً قام السير ارثر كيث الطبيب الجراح الأنثروبولوجي فكتب كتاب « قدمية الإنسان » . وهو يبرهن فيه كيف تطوّرت أعضاء الإنسان بحسب سنة التطور . وفي العام الماضي أصدر كتابه الأخير « نظريات جديدة في التطوّر البشري » قضى في تأليفه بضعاً وعشرين سنة أتى فيه على نحو ٣٠ نظرية في التطورات التي طرأت على الإنسان منذ بزوغه من أشباه الإنسان . وفيما يلي نظريته في أن مصر هي «مهد الإنسان الأول والأمة الأولى» منذ أكثر من عشرة آلاف سنة . وسننشر في الأعداد القادمة نظريته عن اليهود والصهيونية . ونوالي نقل المهم من نظرياته في المواضع الأخرى .

السير ارثر كيث رئيس الجمعية الانثروبولوجية في انكلترا وعضو زميلتها في باريس . وأستاذ كلية الجراحة في لندن الخ — هو عالم عظيم .

مصر مهد الامة الاولى والحضارة الاولى

للسير ارثر كيث

في أواسط الألف الرابعة قبل الميلاد المسيحي ابتدأت قبائل مصر السفلى تندمج بعضها ببعض على الرغم من أن كلاً منها كانت ملازمة منطقتها — اندمجت تحت زعامة واحدة موفقة في إنشاء مملكة واحدة. وفي الوقت نفسه حدث مضارع لها في مصر العليا. فإن بعض عشرات من القبائل كانت منتظمة كالخرزات في سلك على ضفتَّي النيل، من أصوان فما دون على مسافة ما ينوف عن ٣٠٠ ميل — اندمجت كلها في حكومة واحدة تحت سيطرة زعيم العشيرة الذي صار أخيراً ملك مصر العليا. وكان مقرهُ في الضفة الشرقية على بُعد ٤٠ ميلاً تحت المكان الذي تحتله اصوان الآن.

ومنذ القرن الأخير من الألف الرابعة قبل الميلاد (والمصطلح عليه عند المؤرخين ٣٣٠٠ قبل الميلاد) شبَّت حرب بين الملكين انتصر فيها ملك مصر العليا. ويُقال انه قتل فيها ٦ آلاف من الجيش المكسور، وأخذ منه ١٢ ألف أسير. وهكذا جاءت الى الوجود الأمة الأولى (بالمعنى الذي نفهمه من كلمة أمة اليوم) التي علمنا خبرها. الأمة الأولى جاءت الى الوجود بحرب. فبرهنت الحرب على أنها «داية» الأمة أو قابلتها أي مولدتها.

ما ذا أعني بالأمة في المعنى الحديث؟

دعني أمثل على تعريفي للأمة بمصر القديمة — ١ — أنشئت لها حكومة مركزية واحدة — ٢ — الشعب الذي كان محكوماً كان يمثل قطراً واسعاً يمتد من البحر المتوسط الى الشلال الاول مسافة ٥٥٠ ميلاً للطائر — ٣ — القبائل تناست رويداً فروقها المحلية وأصبحت تشعر كأنها أعضاء وحدة أهلية كبرى. وبعبارة أخرى حوَّل الأهالي الى مركز الزعيم، «فرعون» بعض ولائهم أو كلهُ الذي كانوا يوجهونه الى رؤساء قبائلهم — ٤ — ان حب المصري لوطنه شمل جميع البلاد التي كان يقطنها ناسه — ٥ — أصبح المصريون يشعرون إنهم أو، أمتهم يفترقون، عن سائر الأمم والشعوب — ٦ — ثم أصبحوا يتكلمون لساناً واحداً. ويشعرون أنهم يرثون نفس العادات ونفس التقاليد، وإنهم خاضعون لشريعة واحدة، وإنهم يؤمنون بنفس الآلهة. فجميع هذه الصفات كانت روابط الأمة — ٧ — أصبحوا فاهمين ان سلامتهم الشخصية وضمانتها مرتبطة ببلادهم. وعلموا أن أمنهم القومي لا يشرى إلاَّ بثمن الشخصية.

لجعل هذه الاحساسات متقدة في قلوبهم باستمرار لا بدَّ من مرور عدَّة أجيال.

والقدر ابتسم لدول مصر الأولى. ففي مدة الدول الست الأولى التي استغرقت ٨٠٠ سنة كانت الأمة متحدة والحكومة قوية. وفي تلك المدة توالى أكثر من ٣٠ جيلاً. ولذلك يظن المطلع على هذا الكلام إن مرور هذا الزمن المديد على هذه الوحدة يجعلها عنصراً ثابتاً في تقاليد الأمة وأكثر التحاماً. ولكن الواقع برهن على أن الأمر ليس كذلك. فلما ضعفت الحكومة المركزية نهض شيوخ القبائل الى استلام القوة.

كيف حدث ان جماعات بابل القروية نمت الى ممالك مستقلة، في حين أن هذه الجماعات في مصر اندمجت في وحدة شعبية واحدة؟ — لذلك عدة أسباب أهمها تشتت البلاد الزراعية المقفرة في مصر (البور) — الصحراء قاحمة جداً الى شاطىء النيل، بحيث لايبقى إلاّ بقاع مخضلّة للسكان. فليس للأقليات الثائرة جبال تلجأ اليها وتحتمي فيها. كانت جميع أسباب الرزق مكشوفة على ضفّات النيل. فالحكومة المركزية تجعل النيل الطريق السلطاني لنقل قوة عسكرية كافية لقمع فتنة القبيلة الثائرة. وأظن هذا هو العامل الأول لجعل القبائل المصرية أمة واحدة. والعامل الآخر هو شعور الفلاح المصري نحو أرضه وانعطافه اليها. والقوم لكي يستقرّوا يجب أن يلازموا أرضهم. وأما في بابل فالفلاح يترك أرضه وقريته لكي يعيش في المدينة ويشارك أهلها في الصناعة والتجارة. أضف الى هذه الأسباب سبباً آخر: هو عقلية المصريين القدماء. فقد كانوا أميل الى الطاعة والخضوع منهم الى الانقياد، أو الى الائتمار منهم الى الأمر. وكانت قوة الابتكار والاختراع فيهم ضعيفة. ولكنهم كانوا أذكياء في النسخ والاقتباس والتكييف. ولم تكن في عقليتهم روح المنافسة والمحاسدة. ففيما كان المصريون ضعفاء في هذه المواهب كان البابليون أقوياء فيها. وقليل من الخمير البابلي مع العجين المصري ينتج نتائج سعيدة. حدث في فجر المدنية شيء مثل هذا فعلاً

يفيدنا أن ننظر الى المصريين القدماء بعين صديقي وزميلي في فن التشريح الدكتور جرافتن اليوت سمث. ولد في استراليا وتخرّج في كليتي الطب في سدني وفي كمبردج. وانتدب لاحتلال كرسي التشريح في كلية الطب في القاهرة سنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٩. وفي مدة اقامته في مصر توالت الاكتشافات الأثرية التي ألقت نوراً على تاريخ مصر القديم. وليس على تاريخ الدولة الأولى بين ٣٣٠٠ و ٣٢٠٠ فقط، بل على ما سبقها من قبل التاريخ حتى أواسط الألف الخامسة قبل الميلاد. وبعد دراسة عميقة لسكان مصر قبل التاريخ صار الدكتور اليوت سمث متأثراً جداً من أهمية مدنيتهم وثقافتهم. وهكذا حفظت مصر في آثارها كل دور من أدوار تطورها، حتى انه اقتنع بأن المدنية ولدت في شاطئ النيل، وكان مهدها الأول هناك وليس في مكان آخر. وكانت له شجاعة وثقة

بنفسه حتى انه لم يستطع الصبر والسكوت عن أن يحول تفكير العالم الى نظريته (١) فاذا صحّ هذا كان كل ما صادفناه من الثقافة والرقي في ايران وبابل يرجع مصدره الى مصر .

بين الحربين العالميتين الأخيرتين تقدمت معارفنا عن ثقافة آسيا الغربية الجنوبية تقدماً مدهشاً — كان الوادي الهندي الطرف الأقصى من الثقافة والحضارة ومصر الطرف الآخر. إن موقع النجد الايراني الأوسط والحضارات الباكرة التي اكتشفت آثارها هناك ترجح لنا أن سكان هذا القسم من آسيا، هم الذين انشأوا الحركة الحضارية والثقافية التي طوّرت الجنس البشري وجعلته جماعات . والمصريون والهنود كانوا مقتبسين أكثر منهم مبتكرين. أما مصر ففيها أدلة على أنها كانت تتلقى مهاجرين من جهات مختلفة منذ القديم . في سنة ١٨٩٥ فتح مسيو مورجان الأثري الفرنساوي خمس مدافن غربي النيل قرب أبيدوس Abydos (هل عبيدية ؟) وهذه القبور القديمة يرجع تاريخها الى نصف الألف الخامسة قبل الميلاد . ويظن انه في ذلك الحين نقل السومريون Snmeriona ubandian التمدن العبيدي الى بابل . وقد وصف الدكتور فوكه الأشخاص الذين دفنوا في تلك القبور . وبحسب وصفه يختلفون اختلافاً بيناً عن المصريين الذين عاشوا قبل التاريخ ، وكانوا من النمط الذي وجده السير ليونرد وُلي Leinard wooley في أور « الكلدانيين » (العراق) . كانت لهم رؤوس ضخمة وأدمغة ذات حجم يضارع أدمغة الأوربيين اليوم ، في حين أن أدمغة المصريين قبل التاريخ أقل مئة سنتيمتر مكعب عن أدمغة الأوربيين الحاليين . وهناك ثقافة أو حضارة أقدم هي حضارة Tasian التاسيان التي اكتشفها الأستاذ جاي برنتون Guy Bronton سنة ١٩٢٧ — ٢٩ في مصر الوسطى على الشاطىء الشرقي للنيل. وهي تنسب عادةً للقسم الأول من الألف الخامسة قبل الميلاد. فتكون معاصرة للمدنية (الهلافية Halafian) فيما بين النهرين . وقد يمكن أن تكون في الألف السادسة قبل الميلاد . وكان التاسيون زراعيين، وأوصافهم الدماغية تدل على انهم من أصل أسيوي لا مصري . وأما أن آثار الفن الزراعي في مصر أقدم مما وجد منها في آسيا فمسألة فيها نظر . وحين أبحث جميع الأدلة في هذا الموضوع أجد أن لآسيا حق الأولوية .

وأعتقد أو افترض ان سكان مصر في الألف السابقة قبل الميلاد كانوا ضمن قاع (٢) (أو واد) ضيق طوله نحو (٥٥٠) ميلاً ، وجميع حواشيه تؤذن بالاستثمار وارتزاق السكان منها. ماذا كان عدد السكان حينئذٍ ؟ وكيف كانوا منظمين ؟ كان الفرد يحتاج ميلاً مربعاً من الأرض

---

(١) له كتاب بهذا الموضوع بعنوان « المصريون القدماء»

(٢) أظن ان أفضل تعبير عن وادي النيل هو لفظ قاع لان القاع هو السهل الواقع بين جبلين ، والوادي منفرج بين جبال او تلال أو آكام ويكون منفذاً للسيل

المخصبة لأجل معيشته البدائية . أرض مصر المخصبة اليوم ١٢ ألف ميل مربع . فإذا أخذنا هذا القدر مقياساً للبر الصالح للإرتزاق بجمع الغذاء (من غير زراعة) كان سكان مصر البدائيون حينذاك ١٢٠٠٠ نسمة ، وهو رقم أكثر من نصف الأرض الزراعية من مساحة الوادي المسمى الدلتا (١) وهي أقل من نصف ٥٥٠ طول الوادي . ولما كان الوادي أفضل مجال للصيد فنعين نصف السكان للوادي ونصفهم للدلتا. ستة آلاف ينتشرون جماعات على طول ٥٥٠ ميلاً ، فيصيب كل نسمة منهم ميلٌ من النهر . ويحتمل أن الجماعة المحلية كانت تشغل تسعة أميال على طول الوادي ، وتكون حينئذٍ مؤلفة من ٩٠ نفساً من ذكور وإناث .

إذاً فكان سكان الوادي منقسمين الى نحو ٥٥٠ جماعة محلية مساوية في الحجم الى جماعات الوادي . وجميع هذه الجماعات تزيد على مئة وحدة تطورية مستقلة في مصر البدائية . وكان كلما ارتقت الزراعة تضخمت الجماعات المحلية حجماً . وكذلك كانت هذه الجماعات تقل عدداً بسبب اندماج معظمها بعضها ببعض ، الجارة بالجارة . وفي اثناء ما قبل العصر الدولي صارت هذه الجماعات المحلية تعرف باسم القبيلة أو العشيرة أو نحو ذلك .

أصبحنا الآن في موقف أن نفهم ما هو معنى التاجين (المملكتين العليا والسفلى) لدارس التطور الإنساني . إن سكان مصر الذين كانوا في العصر البدائي موزعين في عدد من الجماعات الصغيرة المستقلة ، اندمجوا في العصر الدولي في وحدة ضخمة واحدة . وبهذا الاتحاد قلّ التنازع بين الجماعات المحلية . ولكن أخطار التنازع بين البلاد وما وراء حدودها زادت واشتدت : ومن حسن حظ مصر أن موقعها ضد الأعداء الخارجيين كان منيعاً . فهي كانت محميّة من كل ناحية بصحراء ، ما عدا حدها الجنوبي حيث كان يهدّدها قبائل بوبيا . ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط ، حيث هناك جسر أو برزخ برّي يجعل مستنقعات الدلتا مفتوحة لآسيا . فمن قبل العصر الدولي وما بعده كان هذا الممر الآسيوي طريق الغزاة لمصر والمهاجرين إليها .

بفضل طرق الري والفلاحة صار سكان مصر الذين قدّرناهم بنحو ١٢٠٠٠ نفس في العصر البدائي ، صاروا سبعة ملايين في عصر الحضارة . والميل المربع الذي كان يغذي فرداً واحداً أصبح يغذي ٥٨٠ نفساً . وفي يومنا الحاضر (١٩٤٦) يقدر سكان مصر بنحو ١٧ مليوناً (والصواب ٢٠ مليوناً) أي صار كل ميل يحتوي ١٤٠٠ نفس وهو مضاعف العدد في أكثر بلاد أوروبا ازدحاماً . وحين ننظر الى هذه التغيرات التطورية نرانا مضطرين أن نسلم بأن المعول والمعزقة قد قلبا التطور البشري رأساً على عقب .[يتبع]

---

(١) الدلتا حرف يوناني يشبه المثلث ويقابل الدال العربية . وهي إذا وصل طرفاها بخط صارت مثلثاً

العقل حركة

في خليات الدماغ

إذا بحثنا في سرّ نشوء هذا العقل انكشف لنا صغره لدى عظم هذا الوجود، وضعفه تجاه القوّة التي يتحرك بها هذا الكون .

أما ان العقل نشأ نشوءًا وتطوّر وترقّى بحسب ناموس التطوّر الذي تجري عليه جميع الكائنات بلا استثناء، فلا ريب في ذلك، لأن ظواهر تطوّره واضحة في جميع الأحياء من أحقرها الى أعلاها، الإنسان . فهو لم يدخل الى الدماغ أو الجهاز العصبي من الخارج، بل هو نشأ مع الحياة وتطور معها . أي ليست له ذاتية قائمة بذاتها، بل هو ظاهرة من ظواهر المادة . هو عمل من أعمال المادة . هو والحياة من نتاج التفاعلات الكيماوية بين ذرات المادة وكهاربها . فكيف نشأ ؟

نشأ بفعل التصادمات بين عوامل الطبيعة وبين الجسم العضوي الحي . فكما نشأ الجهاز العصبي البصري بصدمات الأمواج النورية على الجسم، كذلك نشأ المركز الدماغي للرؤية، وكذلك نشأت الحركة التصورية في ذلك المركز التي نسميها العقل المدرك للمحسوسات البصرية، أي المُبصَرات .

فحركات المراكز الدماغية التي تحدثها صدمات العوامل الخارجية من أمواج نورانية، أو أمواج صوتية الخ هي ما نسميه عقلاً . أي أن العقل ليس ذاتية قائمة بذاتها، بل هو أفعال مراكز دماغية تصدرها خليات هذه المراكز . تصدرها هذه الخليات بتفاعلات كيماوية متتابعة بين عناصرها، فضلاً عن تبدُّلات كهربية (نسبة الى كهرب) فيما بينها .

العقل هو وظيفة للدماغ

فالتصورات والذكريات والمقارنات بينها، والإستدلالات والتعليلات والإستنتاجات والتخيلات والتفلسفات الى غير ذلك مما نسميه قوى عقلية، أو أفعالاً عقلية، إنما هي من نتاج حركات الخليات الدماغية . وهذه الحركات من نتاج تفاعلات العناصر الكيمية والتبادلات الكهربية .

أجل يصعب عليك تصديق هذه النظرية لأنك تشعر أن تصوراتك وتخيلاتك وذكرياتك واستدلالاتك الخ. مما يقترن بها من حرية ارادتك، إنما هي أعمال عظيمة جداً، تستعظم أن يكون مصدرها خلية في الدماغ مؤلفة من بضعة عناصر كيماوية بسيطة.

أجل ان تلك الأفعال العقلية أمور عظيمة جداً عجيبة مدهشة. فتستغرب صدورها من خلية لحم ودم. لماذا؟ — لأنك لم تتعوّد أن تلاحظ لهذا اللحم والدم أفعالاً عجيبة. لم تتعوّد أن ترى لها إلاّ ظاهرات بسيطة. ولكن فكّر قليلاً بما يفعله الجهاز العصبي كله من دماغك، الى عمودك الشوكي، الى خيوط أعصابك، الى أطرافها في جلدك، وبما يفعله جهاز الدورة الدموية، وبما يفعله الجهاز الهضمي، وبسائر أجهزة الجسم — فكر فترى العجب العجاب. وما فعل الخليات الدماغية العقلية بأكثر عجباً من هذا.

وهنا لا بدّ أن تقف وتسائل كيف تحدث الخليات هذه الأفعال العقلية المختلفة المتوافقة، أو كيف تتحرّك تلك الخليات لكي تحدث تلك الأفعال العقلية. نعم هذه هي عقدة العقد، وهذه الأفعال العقلية العجيبة المدهشة هي المجهول الذي لا يزال الانسان يتحير فيه. ولكنه ليس المجهول الذي يستحيل كشف سره. فقد يمكن أن يكشفه الانسان كما كشف كثيراً من الحقائق الفسيولوجية.

ولا ريب ان البحث في سرّ هذا المجهول هو أصعب الأبحاث التي يحاولها الأنسان. ولا غرابة في هذه الصعوبة لأن العقل نفسه يبحث عن سرّ نفسه.

الادلة على أن العقل حركة في الخليات

١ — تحقق العلماء (الفزيولوجيون) ان لكل ظاهرة من الظاهرات العقلية مركزاً خاصًّا في الدماغ. فللتصوّر مركز، وللتذكر مركز، وللتخيل مركز، وللكلام مركز، وللغناء مركز، الخ حتى اذا انعطب المركز بطل عمله. فاذا نزع مركز التفكير الحسابي مثلاً لم يعد الشخص يستطيع ذكر الأرقام، أو إذا نزع مركز التذكر نسي كل شيء. وإذا نزع المركز البصري بطل أن يرى شيئاً. وهكذا دوليك. أفليس في هذه الامتحانات العملية برهان على ان تلك الأفعال العقلية إنما هي من عمل خليات المراكز الدماغية؟

٢ — في بعض الحمّيات الشديدة تتسمّم بعض المراكز الدماغية أو كلها بسموم جراثيم الحميات فتضطرب تلك المراكز، وتضطرب أعمالها، ويختل التوافق بينها، فتصدر منها أفعال عقلية مشوشة مختلطة مضطربة. فيفسد التعقل، وتتراءى للمرء صور خيالية غريبة لا يستطيع وصفها بعد أن يصحو من هواجسه. فإذا كان العقل ذاتية قائمة بذاتها، فلماذا يختل تعقله اذا كان الجسم، وبالتالي الدماغ، مريضاً. فلا ريب إذاً في أن الأفعال العقلية

نتيجة حركات الخليات الدماغية . حتى اذا اضطربت تلك الخليات بتأثير الأمراض اضطرب نظام حركاتها ، وبالتالي اضطربت الافعال العقلية .

٣ — فعل بعض العقاقير في الدماغ والجهاز العصبي معلوم لكل واحد . فمن تلك العقاقير ما يؤثر في بعض المراكز الدماغية دون بعض . مثال ذلك : الحشيش (القنب الهندي) يثير مركز الضحك فيتمادى الحشاش في ضحكه . فضلاً عن انه يثير مراكز تصوراته وذكرياته . فتتراءى له أمور غريبة . وبعض المخدرات كالمورفين تسكن العصب الحساس ، وتخدّر العصب المحرك أيضاً ، بحيث لا يعود الشخص يحس أو يتحرك فينام .

وبعضها تخدر العصب الحساس ، وقلما تؤثر في العصب المحرك ، كالكوكايين ، والكلوروفورم . وهذا يخدر معظم المراكز العصبية دون مركز الكلام . فلا يحس المريض تحت العملية الجراحية بشيء من أعمال الجرّاح ، ولكنه يتكلم كثيراً كلاماً قلما تجد فيه ارتباطاً منطقياً ، ومتى زال فعل المخدر لا يتذكر المريض شيئاً البتة.

كل ذلك يدلنا على أن الأفعال العقلية إنما هي حركات صادرة من خليات دماغية ، حتى إذا تأثرت تلك الخليات من العقاقير اضطربت حركاتها أو خمدت . ولذلك نرى الأفعال العقلية مضطربة أيضاً .

٤ — في حالة النوم العميق تقف حركات الخليات الدماغية فيبطل كل فعل عقلي . فأين يكون العقل حينئذٍ إذا كان هو ذاتية قائمة بذاتها مستقلة عن الدماغ ؟

في النوم غير العميق تعمل خليات بعض المراكز أعمالها ولا سيما مراكز التصور والتذكر ، وانما خيوط الأعصاب الاحساسية كالأعصاب البصرية والسمعية الخ تبقى مرتاحة نائمة . ولذلك تمر في مخيلة النائم تصورات أو صور وذكريات مختلفة ، وكثيراً ما تكون غير منتظمة لسكون مركز التعقل . فيظن المرء أن ما يمر في مخيلته إنما هو حقائق واقعية فعلاً ، لأن حواسه النائمة لا تكذب ظنه ، ولا يدري ان ما تراءى له لم يكن سوى حلم الاّ بعد أن يصحو من حلمه ، وتقول له حواسه أن ما كنت تراه في منامك لم يكن حقيقة ، بل كان وهماً — هذا هو الحلم . فاذا كان العقل ذاتية مستقلة عن الجسد أو عن الدماغ فلا تؤثر فيه راحة الدماغ أو نومه أو نشاطه .

إذا اقتنعنا بأن الأفعال العقلية ليست الاّ حركات خليات دماغية أمكننا أن نحل بعض القضايا الفلسفية ، وأهمها قضية «التصورية» Idealism وهي موضوع بحث آخر .

العزلة في رأس الجبل

مناقشة بين صحفي وناسك

٢ — صلة ما انقطع

هزبانه الاقلام

ما هو إلاَّ نصف ساعة حتى برز الناسك من وكره وأقبل اليَّ يقول : تفضل الى الغداء .

وحمل الكرسيين ومشى الى جانبي ودخلنا الى غرفة قُدر طولها بستة أمتار وعرضها بأربعة . ووضع الكرسيين متقابلين لدى مائدة بسيطة الصنع جداً مصنوعة من خشب السنديان كما أظن . وجلسنا لديها وأدرت نظري . فاذا في زاويتها سرير من الخشب وعليه فراش سميك، أظنه محشواً بالقش، وعليه ملاءة بيضاء نظيفة، ولحاف قد طوي ووضع فوقها. ثم رأيت في الزاوية الأخرى خزانة كتب ، لاحظت أن أسفلها يحتوي على موسوعة (دائرة معارف) بلغة أجنبية كما تدل الكتابة المذهبة التي عليها . وعلى الرفوف الأخرى فوقها كتب معظمها بلغة أجنبية . فقلت في نفسي : ان هذا الناسك ليس بالرجل العادي . ولا بدَّ ان له قصة . فلنرَ .

فقلت له : إنك تقرأ هنا . لم تنقطع عن العالم بتاتاً .

قال : هذه الكتب هي الرفيق الناطق . فإذا فرغت من عشرة اخواني الذين علمتَ ، لجأت الى هذه فأقضي الوقت بمطالعة ما شذَّ فيها من الحقائق . قلت : هل ترى في هذه الكتب ما يطابق أفكارك ؟ قال : في معظم الموسوعة أقرأ الصدق الذي كان القلم يكتبه رغم أنف صاحبه . وفي الكتب الأخرى اقرأ بعض الصدق اذا كان القلم فيها عبداً لجهل سيده. والحقيقة مضطهدة في دولة النفاق ، ومطمورة في ركام الترهات وفي ظلمات الخرافات . حتى اذا لمحت ضيائها فلا تدري أنورُ حقيقة هو أم لهيب ضلالة تحرق .

ونهضت لكي أرى ما هي هذه الكتب الكاذبة في رأيه ، ومررت فيها بنظري فإذا معظمها كتب علمية باللغة الانكليزية ، وقليل من الكتب العربية الأدبية والاجتماعية . فأشرت اليها قائلاً : في أي هذي تجد الحقيقة ؟

فقال : كلها أكاذيب وضلالات .

قلت : عجباً .

قال : هذا كتاب أخلاقي كله نفاق، لأن كاتبه وقارئيه لا أخلاق لهم. وهذا كتاب اجتماعي كله مروق عن الحقيقة لأن كاتبه يتفلسف بالمبادىء الاجتماعية . وهي مبادىء متقلبة مضطربة على لجج من الاهواء ، مستمدة من مراوغة الانسان . فلا ترتفع موجة مبدإ اجتماعي حتى تسفل موجة مبدإ آخر ينقضهُ . واذا اخترع الساسة والحكام سنّة اجتماعية، فلا يلبث خلفاؤهم أن ينقضوها بسنة أخرى . فسنة الاقطاع والرقيق كانت تترنح متداعية الى أن استفحلت سنة الملكية المتألهة فسحقتها . ثم لاحت سنة الديموقراطية المبهرجة، وهي ترقص تيهاً ودلالاً فركلت تلك . ثم نهض جبروت الدكتاتورية فمحق هذه. ثم نبتت سنة الإشتراكية وهي تزعزع تلك الأنظمة جميعاً . وأنت تعلم ذلك كما أعلمه. ففلاسفة الاجتماع مضطربو الدماغ ، مقلقلو النخاع بين هذه الاضطرابات الملتجّة ، فلا يستطيعون أن يقرّروا مبدءاً أو نظاماً ثابتاً لأنهم يستخرجون مبادئهم من مجرى الحوادث البشرية التي يسيرها قادتهم . وثعالب البشر يناهضون بعضهم بعضاً فيما هم مخدوعون بأنظمتهم، زاعمين أن في شرائعهم الإجتماعية قسطاس العدل بينهم ، فيجب الخضوع لها ولكنهم يتمرّدون عليها . بل هم يحتالون لمخالفتها فيما هم يهددون بعضهم بعضاً بالعقاب لمعصيتها. ضعيفهم يرهبها خوفاً، وقويهم يخالفها وهو يزعم أنه منفذها. وسواد الناس كالكلاب الأمينة التي أصبحت الطاعة العمياء غريزة فيها . كلهم منافقون أفاكون. وهذه الكتب الإجتماعية والسياسية والاقتصادية إنما هي مجموعات ترّهات وخزعبلات وضلالات وخرافات.

فشكرت الله سرّاً لانطلاق لسانه بالكلام الحرّ وقلت : ما رأيك بهذه الكتب الأدبية وأعني بها الأدب الكتابي .

قال : ان كاتبيها كالقطط الجائعة التي تلتهم القيء . فهم يلوكون الأدب القديم الذي تقيأه أسلافهم ثم يتفلونه أدباً جديداً زنخاً فتقز نفسك منه . تعال نتغدَّ الآن قبل أن تغثى نفسك من نتانة هذا الأدب .

***

جلسنا ثانية لدى المائدة الساذجة . فرأيت عليها صحفة كبيرة مملوءة من البيض المقلو باللحمة . وصحفة أخرى مملوءة لبناً خاثراً وخياراً مؤرّباً (١) مغموساً فيه . وخبزاً أخر

---

(١) مفروماً

من خبز السوق بجدَّته ولونه وليونته . فقال عسى ألاّ تصدَّ نفسك بساطة هذا الطعام وتفاهته .

فقلت أن بساطته هذه المزعومة تثير شهوة معدتي ضعفين، لأن معدتي ملّت تلوّن الطعام الذي يعزى اليه في هذا العصر كل سقام

فقال : وهذه لحمة « مقدَّدة » وهي ما يسميه الأتراك «قاورمة» اعتمد عليها في طبخ طعامي ، لأنه لا يتسنى لي أن آكل لحماً طازجاً كلما رغبت . فأذبح أسمن خروف عندي وأصطنعه «قاورمة» فيكفيني بضعة أشهر . وأذبح خروفاً آخر وأصنعه وأرسله الى الدير . أما هذا اللبن الخاثر فهو طازج دائماً بفضل البقرة «بلقاء» الثمينة . والخيار الذي فيه هو باكورة خياري في هذا العام . وقد أرسلت قدراً وافراً منه للدير مع الغلام الذي رأيتَ

استطبت ذلك الغداء جدًّا لدسامته ورائحته الزكية . ولما كفت معدتي عن قبول المزيد نهض وأتى بصفحة من شهد العسل تشق رائحته العطرية الطريق الى زوايا المعدة. وقال : هذا من النحل الذي أعنى برعايته .

بعـد أن أكلنا هنيئًا وشربنا ماء زلالاً بارداً مريئاً قلت ، لقد أكثرنا من طعام الغداء ونحن لم نأكل ربعه

قال . الباقي لأبجر وضيغم ولبؤة . نحن أسرة واحدة يجب أن نتقاسم الطعام .

قلت : أجل يستحقونه . فهنيئاً لهم، يحسدهم ملايين من مساكين البشر الذين يندر أن يتمتعوا بشبه هذا الطعام الشهي .

قال : كان في امكان جميع ذئاب البشر الآدميين أن يتمتعوا بأفضل منه لو شاؤوا . لأن سطح الأرض الذي يكدحون فيه مملوء من الخير الذي يقتتلون لأجله، وهو يكفي أضعاف أضعافهم . ولـكنهم ذئاب ونعاج يأكلون بعضهم بعضاً . هلمَّ أعرفك بسائر أسرتي .

دخلنا الى اسطبل طويل عريض مبني من الحجارة الضخمة ويُـقسم الى حظائر مختلفة. فاستقبلنا جوادان بصهيل موسيقي . فقال إنهما يرحبان بك . وتقدما اليه . فجعل يربت على كتفيهما. ثم جاءت أربعة أبقار فتقدمنا اليها. وكانت قد انثنت عن المزود . وربت على رقابها. ثم تقدمنا الى مراتع الأغنام والمعاز . فنهضت من مراقدها وتقدمت الينا . فجعل يحاسنها ويقول . اقعدي واجترّي .

ثم تجاوزناها الى كن للدجاج واسع لمئة منها، مفصولة بفاصل من قدد الخشب المتقاطعة. فقلت ألا يخشى من هجوم الذئاب على هذه الدجاج .

فقال : وأين أبجر وضرغام ولبؤة ، حماة الدار ؟

فقلت ألا يخشى من قطيع الذئاب والضباع في قر الشتاء، وقد جرأها الجوع على غزو الدار قال حدث مثل هذا في بعض الأحيان في غلس الليل. فكان الحماة ينبهونني بنباح نذير؟ فأخرج ببندقيتي وأقتل ذئبين . مع ذلك قلما يستطيع الضواري الوصول الى هنا، لأن الجدار الغربي مرتفع عشرة أمتار والشرقي مرتفع ومنتهٍ بأسلاك شائكة .

قلت : إن الأبقار والأغنام والماعز والدجاج لك حاجة بها . وأما الخيل فلماذا ؟

قال : أركبها أحياناً للرياضة في هذا الجبل إذا رغبت في الصيد . وإذا ولدت الفرس أرسل المهر الى الدير .

ثم عدنا الى صحن الدار وجلسنا على الكرسيين للحديث .

النفاق المصدَّق

بعد صمت برهة فهمت أنه لا يريد ان يبتدئ استئناف الحديث . فقلت يلوح لي أنك ناقم على عالم البشر .

قال : ما أنا الاّ صفر في بحر العالم . وباعتزالي هنا أصبح الصفر المرقوم نفسه عدماً . ولماذا أنقم على عالمكم وقد رحلتُ عنه ، ولم يبقَ لوجودي فيه خبر ، فكيف يكون لنقمتي أثر ؟

قلت : ماذا تقول ؟ ان أخبار عزلتك في رأس هذا الجبل أصبحت المواضيع الشائقة في الجرائد ، والصحفيون يجدون فيها الغذاء الدسم لأقلامهم .

فنظر فيَّ مبتسماً وقال : ألعلك من زمرة الصحفيين المنافقين المصدَّقين ؟

فأجفلت مستهجناً مجاملته الوقحة الفظة ، وقلت متغاضياً عنها : إذن يصدق المنافقون.

قال : معاذ الله . ما الصحفيون إلاّ « سرُجُ الليل » (الحُـباحب) التي يظنها الناس مصابيح الطبيعة، فلا يلبثون أن يجدوها حشرات خداعة . ولكن سواد الناس الذين من طينتهم ينخدعون بذلك الضوء الضئيل المتألق ، ويصدقون انه نور هداية . ثق ان نفاق الصحافة المصدق لهو أفدح نكبة نكب بها الناس، بعد سقوط آدم بسبب شهوته للتفاحة في جنة عدن .

ولعله لمح على وجهي اكفهراراً من هذه النفحة اللافحة فقال : أجلك عن الاستياء من صراحتي التي كانت من أسباب عداوة الناس لي .

فقلت مستدركاً : لا بل تسرني صراحتك جداً إذ تكشف لي سريرتك التي هي ما أتوخاه من زيارتك .

فقال ان سريرتي في أسارير وجهي ، قد تحتاج أنت الى مجهر لكي تكتشف أعماق أسرار البشر . ولكن أسراري يراها الأعشى عن بعد . وقد تحتاج الى منظار لكي تستقرب أبعاد مطامع الناس المكنونة في رئاتهم ، ولكن أقصى ما في نفسي من الطمع تراه في هذه المملكة الحيوانية الطاهرة التي أرعاها . هذه سريرتي فلك أن تلونها لقرائك بما تشاء من الألوان البراقة ، وان تموهها بما تشاء من الطلاء المصطنع لكي تستهوي القراء .

قلت : معاذ الله أن أشوه حقيقتها . سأكون أميناً في تصويرها كما أراها .

قال : إذن لست صحافياً فنياً ، لأنك إن لم تتفنن في النفاق يُعرض عن صحيفتك القراء ، وينبذك صاحبها من بين محرريها ، لأنك تكون غبياً لا تحسن التحرير المشوق للقراء ، إذا لم يكذب قلمك لا يصدقك قراؤك . ماذا تقول عني وعن سرائري ؟ أتقول : تغديت عنده بيضاً مقلواً بالقاورمة ؟ هذا خبر تافه كقول الشاعر : « كأننا والماء من حولنا » لقد كتب غيرك قبلك إني « أبغض النساء ، حتى إذا رأيت امرأة طالعة في الجبل نحو هذه المستعمرة رميتها بالحجارة » فاذا لم تكتب أنت ما يعارضه كقولك : إني أركب جوادي وأطوف بين القرى لكي أتصيد النساء واختزنهن في مستعمرتي بحماية أبجر وأخويه ، لا يقرأك الناس . وحينئذٍ يضطر من تنافسه في الاختلاق أن يختلق أكذوبة أخرى أكذب من أكذوبتك وأكذوبته الأولى لكي يغنم اعجاب قرائه .

قلت : في قولك كثير من الحقيقة . وإنما أود أن أعلم كيف تعلل أن القراء لا يصدقون إلا أكاذيب الصحف .

قال : أجل . إن قراءك لا يصدقون أخبارك الصادقة لأن الصدق شيء طبيعي ، لا ينبه الذهن ولا يسترعي الفكر . فهو كضوء الشمس الغامر العالم ، ليس شيئاً رائعاً كما يروعك لمع البروق في الليل بين السحب إذ تتراءى لك لهباً في السماء ، وما هي إلا شرر يقدحه زناد الغيوم المحتكة . نور الشمس لا يلفتك ، ولكن ومض البرق يخطف بصرك . وصدق القلم لا يفتق أذهان الناس ، وأما أكاذيبه فتستهويهم بغرابتها ، وتعجبهم بهجنتها ، وتطربهم بضربها على أوتار أمانيهم ، وتلذ لهم بتحريض شهواتهم . لذلك يقرأ الناس الجرائد كأنهم يقرأون أنباء أنبياء . وإذا شاء شخص أن يفحم شخصاً آخر قال له : « ويك ! هذا مكتوب في الجريدة ، يا صاح » ولا ينقصه إلا أن يقول « الجريدة المقدسة » . ولذلك ترى أن أروج الجرائد أبرعها في فن النفاق وعلم الاختلاق .

قلت : إذن للصحف محمدة عظيمة ، وهي أنها تمنح الناس لذات كثيرة ضرورية للحياة بثمن زهيد جداً . فهي كالهواء الذي نتنفسه مجاناً ، أو كأشعة الشمس التي نحيا بها بغير بذل .

قال : وللناس منها أيضاً ضلالات تتدفّق منها على الأرض ويلات ، كأنها حممٌ تقذفها براكين الجحيم . ما قاسى العالم الإنساني في تاريخ حضارته عشر معشار ما يقاسيه الآن في عهد الصحافة . وجميع طرق النشر والدعاية هذه هي ولا شك من مخترعات الأبالسة ، بل هي حملة من دولة بعلذبوب الجهنمي على ملكوت الإنسان الأرضي .

فقلت ضاحكاً : وي . وي . إذا كان هذا حكمك على الصحافة فهي حرية بأن يقضى عليها كالقضاء على الزانية في شريعة موسى .

قال : أجل . من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . فأنتم غشاشون كصحافتكم .

قلت : قد يكون في بلايين الأنام عشرات غير حريين بأن يرموها بالحجارة . فكيف تتصوَّر العالم الإنساني وقد قتلت صحافته .

قال : لا لزوم لتصوُّر ما لا يكون . بل انظر انت إلى ما هو كائن حولك . هذا ماليٌ ثريٌّ يستأجر قلمك ببعض دنانير كان ينفق أضعافها في المواخير، فتكتب أنت الأراجيف التي هو أوحاها إليك، فتهبط أسعار القراطيس المالية فيشتري . ثم يستأجر قلماً آخر فينشر مقالاً برفع الأسعار فيبيع . وبين الشراء والبيع تمطر سحب المضاربات عليه سيولاً من الثروات التي بخرتها مقالتاكما من جيوب الخاسرين . فذاك يتمادى في البطر والرفاء ، وهؤلاء في البؤس والشقاء . وهناك حاكم يحكم بأمره عاتياً مستبدًّا . فتحوم أقلامكم من حوله مسترسلة في الأطناب بعدله وبجهاده في سبيل الله ومصلحة الأمة . وهو يبتز مال الأمة ويغدق عليكم من هذا المال . وهنالك أغرب من ذلك ، ثريٌّ جمع ثروته من متبلور عرق العاملين، فتسابقتم في تمجيده وتبجيله، كأن ثروته نعمة للأمة وسعادة للشعب ، وأثنيتم على مهارته في استنزاف ذلك العرق، وجعلتموه نموذجاً للمقدرة في فن الكسب، ودعوتم الشبيبة للإقتداء به . وأخيراً تحتفلون بيوبيله . وكل فضله أنه تصدَّق على أقلامكم ببعض الفتات المتساقط عن مائدة زوانيه . هذا نزرٌ يسير من خدم الصحافة للمجتمع .

قلت : هذه أحكامٌ لا تصدُق على جميع الكتّاب ولا على جميع الصحف . وللصحف كثير من الخدم للجمهور تربو على هذه المساوىء المحصورة في دائرة ضيقة قد لا تضر بالجمهور .

فقال : مهلاً مهلاً . في يوم من الأيام تقدَّمتُ وبضعة من الرفاق إلى صاحب جريدة لكي ينشر نبذة صغيرة، نُلفت فيها نظر الحكومة الى بعض الإعلانات التي تنشر في الجرائد وفيها تضليل للجمهور ضارٌّ به جدًّا ، كالإعلانات المصطنعة عن الأدوية الأفاكة مثلاً . فتناول الصحفي نسخة من الجريدة وبسط صفحةً كلها اعلان واحد من هذا القبيل

وقال : كم تظنون أجرة هذا الاعلان ؟ – بمثل هذا الإعلان تنتشر الجريدة وتعيش . ولولا هذه الإعلانات لما قرأتم جريدة قط . فإذا نشرنا نبذتكم هذه حُرمنا كل اعلان كهذا الإعلان. وتوقفت الجريدة عن الصدور وحصلت لكم مجاعة أخبار . هذا كان جواب الصحفي . وفحواه الحقيقي أن الصحيفة لا تعيش إذا لم تقدم للجمهور الكذب في دسم الكلام المبهرج . أفما كان حريًا بكم أن تعيشوا كما كان يعيش رعايا نبوخذنصر واسكندر وهرقل وشارلمان الخ بلا صحافة ولا دعاية . فتململت وقلت : ومع ذلك لا تزال للصحافة محامد وفوائد . ولا غنى للناس عنها على الرغم من هذه المساوىء ...

فقاطعني على الفور قبل أن أذكر له شيئاً من محامدها قائلاً : أجل للمورفين محمدة عظمى للمدمن . فلا يستطيع المدمن أن يمضي حصة من اليوم إلاّ إذا أخذ مورفين لكي يسكن ثورة أعصابه بعد أن ينتهي فعل الجرعة السابقة . يتهالك في تعاطيه ولو اقتنع بسوء مصيره . فلا تُعنت منطقك في استخراج محامد الصحافة . أتريد أن تقول انها تنشر أخبار حركات التقدم الاجتماعي في العالم ؟ — نعم . إنها تذيع أخبار التطوُّر الاجتماعي على حساب الدعايات المضلِّلة . مثال ذلك أذاعت جرائد أوروبا أخباراً عن استعدادات البلقان الحربية .

فاضطربت تركيا وجعلت تستعد هي أيضاً ؟ وجعل معمل كروب يموّن الفريقين بالأسلحة الى أن شبت حرب البلقان . وأخيراً ظهر ان معمل كروب كان يرشو الجرائد الأوربية بجزيل الأموال، لكي تختلق الأخبار الكاذبة المهيجة لحكومات البلقان وتركيا ، ولكي تشتري هذه منه أسلحتها . وظهر انه باع لتركيا الرديء ولغيرها الجيد من الأسلحة ، فانكسرت تلك . ولعلَّ ذلك كان ما شاءته المانيا حينئذٍ . أتريد أن أبسط لك زيادة من حوادث العالم في عهد الصحافة ولاسيما العهد الأخير ، لكي ترى أن معظم الحروب وأشرّها شبّت بسبب الصحافة . هذه هي الصحافة يا سيدي الكاتب القدير . وهذه هي أكاذيبها المصدّقة . فهل تريد أن تقول «بارك الله بالصحافة» قل .

وسكتنا برهة ثم قلت : الحروب قديمة كقدم الانسان كما تعلم . فلا يجوز أن نتهم الصحافة باثارتها . فهي حادثة على كل حال .

قال : أجل الحرب قديمة كقدم الانسان ، ولكن التطوُّر الاجتماعي متقدم بالانسان الى الأمام، ومن مقتضاه أن تقل الحروب ويزداد التضامن والتعاون بين البشر ، ونحن نرى الأمر بالعكس . يتقدم الانسان فتكثر الحروب .

قلت : نقاشك وجيه . فهل تشور بأن تلغى الصحافة بتاتاً لكي يزهق الباطل .

قال لا: إن هذه الصحافة الآفاكة لازمة لناسها الغشاشين . فهي من طينتهم . فاذا أمكن

تطهير الناس من الغش والنفاق طهرت الصحافة من الكذب. وكانت لهم بركةً وخدمت سعادتهم

— إذن . لا نيأس من اصلاح الصحافه .... فعقّب على قولي قائلاً : إلاّ إذا يئسنا من اصلاح حال المجتمع . فهل ترى أن المجتمع مقبل على اصلاح . دع هذا البحث الى جلسة أخرى وهلمَّ بنا نتنزه على صهوتي الجوادين في هذا الوعر . هل تسر بنزهة كهذه على متون الخيل ؟

قلت : لم أمارسها قط . ولكن لا بأس أن أعمل باقتراحك، لعلي أكتشف تمتعاً جديداً

قال : هذه النزهة لأسرّ متعة لي . وأظنك ستستلذها .

قلت : أخاف أن يأزف وقت العودة . قال : هل أنت مضطرّ للعودة اليوم ؟

قلت : لا . بيد أني أخشى التثقيل عليك في عزلتك .

قال : بل يسرني أن تكون في ضيافتي ما تشاء من الزمن . فلا تحسب حساباً لتثقيل ما دامت صراحتي لا تلوّح لك بتثقيل .

فسررت جداً من اقتراحه باستمرار ضيافته برهةً لأن هذا ما كنت أتوخاه، وأتحيّنُها فرصة لعجم عوده بشأن عزلته . ولأني لم أستوفِ بعدُ حاجتي من مباحثته ولا سيما لأني وجدت فيه كنزاً من الفلسفة الاجتماعية . فقلت : الف شكر . ولكن البغل ؟

قال : يبقى ضيف أسرتي . قلت : لعلّ سيد الدير يقلق .

قال : لا . لا بدّ أن يعتقد أنك ما زلت في ضيافتي . وان شئت فنلقي للبغل حبله على غاربه فيذهب من تلقاء نفسه الى الدير بكل أمان، أو فنرسله غداً مع المكاري لأنه سيأتيني بالبريد وببعض حاجات طلبتها من سيد الدير أن يشتريها لي .

قلت : إذاً تكاتب بعض الناس . قال : لا . بل أنتظر بعض الصحف والكتب .

قلت : إذن لا غنى لك عن أكاذيب الصحف والكتب .

قال : ضاحكاً . طبعاً لا . لأني أتفكه بفن الأكاذيب . والفرق بيني وبينكم أني أعلم أنها أكاذيب . وأما قرّاؤكم فيصدقونها .

ثم امتطينا صهوتي الجوادين وخرجنا الى الوعر وكان سروري عظيماً بجمال المناظر التي كانت تتعاقب أمام ناظري . وكان هو كل هنيهة وأخرى يدلني على قرية أو ناحية في سفح الجبل، ويذكر لي أسماء الأشجار والنباتات والطيور التي نصادفها .

ثم عدنا قبل غروب الشمس . وتعشينا مما حضر من الجبنة واللبنة والزيتون والدبس والتين المجفف مع اللوز . وسهرنا سهرة قصيرة لم نتحدث فيها إلاّ عن مطالع النجوم وبعض ظاهرات الطبيعة مما لا طائل تحته .

ثم ألحّ عليّ أن أضطجع في سريره وهو افترش فراشاً خارج الغرفة ونام في الهواء الطلق

ملحمة العصر

ميراث الشباب للمشيب (١)

قدم المشيب فرحباً بقدومه   ومضى الشباب بجنّة الأحلام
وهب الشباب حفيده(٢) ميراثه   ذكرى الليالي البيض والأيام
ما زلتُ بالذكرى أحسُّ شبيبتي   متمتعاً بصبابتي وغرامي
أمضي بمعكوس الزمان. مضارعي   خلفي وماضي صبوتي قدامي
وأرى بهاء الشيب جمّل لمتي   فعلا به عند الصحاب مقامي
إن كان ذا بُطلاً فعذري أنهم   وضعوا الشيوخ مواضع الاكرام
أختار من نعم الزمان وعطفه   شفقَ الكهولة لا صباح غلام
فضحى الحياة مهددٌ بكفاحها   وأصيلها بشرى بعهد سلام
عاجلته عهداً فلم يك صدقه   إلاَّ أكاذيباً من الأوهام
وخبرت ذا الدهرَ الخؤونَ فلم أجد   إلاَّ الخيانة في شرور طغام
الدهر يبرأ من ذنوب لم تكن   إلاَّ ذنوب الناس والأقوام
الدهرُ يومٌ في الزمان يسير في   رأي الطبيعة لا برأي أنام
ذهب الشباب ولم يكن حدثانه   إلاَّ تجاريب الفتى المقدام
ولكم رشفتُ من الغرور كؤوسه   والآن من حِكَم الحكيم مدامي

* * *

إنعكاس النظام

زمن التمدن بات منقلباً كما   انقلب المشيبُ إلى الشباب الطامي

---

(١) نظمت في مدة الحرب (٢) الكهولة بنت الشباب ، والشيخوخة بنت الكهولة

الخاملون على النوابغ عالةٌ   مثل الطفيليات في الأجسام
كالنحل يصنع شهده والمرء يجنـ   ـيه بلا تعبٍ ولا استحرام
والمجرمون على البريء ترفعوا،   عزُّ اللئام مذلةٌ لكرام
يتغطرس الصعلوك إن يك آمراً   ويذلُّ مأمورٌ مع استسلام
كالبدر يُزهى نازحاً عن شمسهِ   فإذا دنا منها اختبأ بظلام
وغدا عباقرة الجهالة سادةً   بثرائهم في كنف شرّ نظام
يتبجحون على عباقرة النُّهى   فكأنهم هم نخبة الأعلام
لهم الكلام ولو سخيفاً فاهياً   وعلى العليم سماع لغوِ كلام
لهم الصدارة في المقام كأنما   وزن الفلوس غدا عيار مقام
فقوامهم دينارهم والنفس لا   ثقلٌ لها، ليست بذات قوام
يرقى الغبار الى تلال ركامهِ   ونفائس الألماس تحت ركام
وإذا الجهول أصاب معرفةً فيو   همهُ الغرورُ برتبة العلاّم
يبدي المرائي في لقائك بسمةً   ومن الوراء لواسع النمام
ويرى فضائلك الحسودُ معائباً   ويرى معائبَه المثال السامي
فتقلّبت أوضاعنا رأساً على   عقبٍ كمحراثٍ مضى برغام
هذي الحضارة أعضلت أدواؤها   سُلُّ الضمير وضعف قلب ذمام
واستحكم السرطان في الأخلاق   والآداب صارخة من الآلام

* * *

شباب التمدن

بين الشبيبة والمشيب لقيت ما   لم يلقه جدّي ولا أعمامي
نورٌ بلا نار وترتيل بلا   حلق وأحلام بغير منام
صنع بلا أيدٍ وأنباء بلا   لِسن وتقتيل بغير حسام
طيرٌ بلا جنح وتقريبٌ على   بُعدٍ وإبصارٌ برغم غمام

أضحت أقاصي الأرض مثلَ خريطةٍ   صغرى مقلّصة الرحاب أمامي
فتجمع الشرقان والغربان في   دارٍ تؤاويهم بغير زحام
هي للورى وطنٌ رحيبٌ واحدٌ   شُبِكت به أرزاق حامَ بسام
وقضى اشتباكهم بحسن تعاون   لكنّ نهمهم قضى بصدام
لو يقنعون برغدهم لتمتعَ   الأقوام كلهم بغير خصام
لكنّ شيطان المطامع قد غزا   الملكوت بغية هدم كل نظام
واستحكم استعمارهم بالآمنين   على غرار الذئب بالأغنام
ملأت مصارفهم ملايينٌ من   العرق المبلور من جباه أنام
يفنون والأموال باقية. لمن ؟   المال لا يحيي رفات عظام
المال مخزونٌ ومن تعبوا به   يتحسرون على ضئيل إدام
بَنَوْا(١) القصور وما أجيز جلوسهم   فيها ولو لتحية وسلام
يا ناس ما هذا التكالب والدنى   مكتظةٌ بالخير والأنعام
والأرض واسعةٌ لأضعاف الملا   كلٌّ له فيها رحيب مقام
يتزلّفون الى الثريّ عسى يجود   لهم رضاه بنعمة المنعام
يتضرّعون الى إله مصانع   فعسى يمنُّ لهم بالاستخدام
عجباً أيستجدون من مجهودهم   أرزاقهم ؟ هي نعمة المكرام

* * *

احتضار المدنية

وتهافت المتحاربون الى الفنا   فكأنّ عزة نصرهم بزؤام
ومحبة الأوطان كارثة بها   يمضي السلام الى جحيم خصام
يفدونه وطناً . فما الوطن الذي   يبقى اذا ما باد كل همام

---

(١) الضمير يعود الى الذين تعبوا

هم يبتغون بقاءهم بفنائهم   يا للبلاهة في سخيف كلام
ساق الشبيبة سوط دكتاتورهم   لمجازر الهيجاء كالأنعام
سكروا بخمر محبة الأوطان   وافتخروا بمدفعهم وبالصمصام
ومضوا يغنون النشيد وما   دروا ان التغنّي في احتفال حِمام
لو كان هتلر مخلصاً لبلاده   ورأى مصير بلادهِ لركام
وجهادها عبثاً وقد باتت   أوامره بها شرّاً من الإِجرام
وغدا دمار بلاده برضا كرملينِ وجون بولٍ وأنكل سام
لقضى انتحاراً صارخاً بجيوشهِ   أضحت سلامتكم بالاستسلام
ومضى مجيد الذكر موفور الثنا   لكن تخيّر موتة الظلاّم

* * *

ملكوت الشيطان

يا هول مارجٌ الحضيض فماد من   شهب مطرنَ من الفضاء ضخام
وتجاوبت في الخافقين صواعق   قصفت ودكت راقي الآكام
أترى الطبيعة وهي هائجة ومن   أحشائها لفظت جحيم ضرام
حتى اذا سخطت على انسانها   خرّت شوامخه الى الاقدام
فتقوضت فيها هياكل بذخهِ   وحمى ثراه ومقدس الحكام
وعلى تمدنه طغت وحشية   جزعت لها وحشية الضرغام
وفظائعٌ وجفت لها الغبراء   واقتمّت بها الزرقاء أي قتام
أفلا تراع بها ملائكة السلا   م وتستطيل حوالك الأيام
فني التقى والخير في الدنيا ولم   يثبت سوى الأرجاس والآثام

* * *

رحماك يارباه يارحمان هل   أطلقت للشيطان كل زمام
وجعلت سكان البرية من أبا   لسة الجحيم دعاة كل حرام

أترى الديموقراطية انهزمت   وبعلسزبول أمسى سيد الأحكام
حتى إذا وهت القوى طلب العدالة   مكرهم بتآمر الأخصام
لا السيف يقضي بينهم كلاّ ولا   أفك السياسة في جدال خصام
المشكلات تعقدت فتواثبت   أطماعهم في دار الاستغنام
هم كفنوا روح العدالة حيةً   من مكرهم بزخرف الأعلام
حتى إذا صرخت بهم مصروعةً   زجوا الصريعة في ضريح رخام
يتحفزون الى القتال كأنهم   يستكثرون عليه هدنة عام
فني الشباب لو استطاعوا جندوا   بعد الشباب أجنة الارحام

* * *

فجور المدنية

أتباع عيسى ويحهم قد جرحوه   كل يوم ألف جرح دام
سنّوا سلاح الحرب من صلبانه   واستبدلوا تحنانه بسهام
باعوا محبته بمحض عدائهم   واستقبلوا الغفران بالآثام
جعلوا كنائسه مرابط خيلهم   وانداست الأقداس بالأقدام
تالله ما نكل اليهود به كما   نكل الطغاةُ بأبريا الأخصام

* * *

مدنية فخرت بباذخ علمها   والعلم بات جريمة العلاّم
لم يجرم العلم البريء وانما   شر السياسة علة الاجرام
يستخدمون العلم للتدمير سل   أهو المدمر أم أولو استخدام
العلم للبنيان لكن السياسة   صيرته آلة الهدّام
وإذا بالاستعمار حكّم أمة   في أمة بفنون الاستحكام
رق الشعوب بديل رق عبيدها   كتبدل الأنفاط بالأورام

قتل الضمير فرحمةٌ ، والخلق لا   يحيي الضمير إذا مني بسقام
وإذا الضمائر والخلائق أفنيت   فالحق راح ضحية الظلاّم

* * *

غرور المدنية

فتن الورى مدنيةٌ فتسنمت   من عزها البرّاق كل سنام
رقيت الى العلياء حتى جاوزت   قنن السماء ومسبح الأجرام
واستقربت أقصى الوجود ونقبت   عن سره المكنون خلف ظلام
غاصت الى قلب الهيولي واجتلت   ذراتها ومدارها المترامي
واستحكمت بقوى الطبيعة عنوةً   من كهرب وضيا وموجٍ طام
واستخدمتها لانتفاع أناسها   في كل ناحية وكل مرام
وكذا تسنى للورى أن ينعموا   لكنهم صدفوا عن الانعام
واسترسلوا بفسادهم وفجورهم   ثملين من شهواتهم بمدام

* * *

يا ويحها مدنية قاست بحشر   جة الممات شدائد الآلام
شاخت ولمّا تستتم شبابها   كلاّ ولا اقترب الصبا لتمام
الدهر عامٌ في الزمان وعمرها   من دهرها المملول بعض العام
ماتت بزهرة عمرها مبكيةً   فكأنها ماتت بعهد فطام
تمضي مكفنة بثوب فسادها   وبكفرها والسكر والازلام
وارحمتاه على التمدن والنهى   والعلم والفن الجميل السامي

* * *

أترى يقيم الله خلقاً ثانياً   يبغي الصلاح على قويم نظام
ويعيش في النعماء موفور الهنا   متمتعاً بمحبة وسلام؟

مشاجرة

بين أحياء وأموات

وملاك يتدخل

اجتمع في منزل الفيلسوف اللورد برتراند رصل أخي اللواء رتشرد رصل باشا الذي كان حكمدار القاهرة — اجتمع رهط من كبار العلماء من أحياء وأموات لكي يهنئوا الفيلسوف برتبة اللوردية التي حصل عليها أخيراً . ومنهم هوبل مدير مرصد جبل ويلسون في أميركا ، وبلانك الألماني صاحب نظرية الكونتم (المقدار)، والسير أوليڤرلدج الروحاني، والسير أدينغتون رئيس مرصد جامعة لندن ، والسير تجايمس تجنز العلامة الكبير أحد العلماء الستة الممتازين في العالم، وبوانكاره العلامة الفرنساوي ، وبوهر العلامة الدنيماركي صاحب نظرية النظام الشمسي في الذرّة، والدكتور أوبنهيم رئيس لجنة علماء القنبلة الذرية ، والسير روذرفورد مكتشف الطاقة في الذرّة، والفيلسوف جود (الجيم غير مصرية) أستاذ الفلسفة في جامعة لندن . وآخرون غابت عنا أسماؤهم .

فافتتح الحديث السير أوليفر لودج قائلاً مبروكة اللوردية يا برتراند : لورد أف ماذا ؟ (كقولك لورد أف خرطوم لكتشنر) .

فقال بلانك : لورد المجهولات الكمية في حساب التكامل والتفاضل

فقال تجينز . ليس رصل وحده متخصصاً في هذا الحساب . كل واحد منا يعرفه ،

فقال جود : لورد المعضلات الفلسفية .

وقال ادينغتون : بل هو لورد عالم الأفلاك .

فقال بوانكاره : إن كان هو ممتازاً بسياحته في السماء فليقل لنا كم يبعد النجم الفاقنطورس عنا

فقال هوبل : يستحي برتراند أن يجيب على هذا السؤال وهو الآن قادم من الفاقنطورس

وضحك وضحكوا معه . وقال بلانك : إذا كان هو نوراً حين رحلته فيمكنه أن يقول لنا كم سنة قضى حتى وصل إلينا من هذا النجم .

فقال السير أوليفر لودج : بل هو روح يمكنه أن يحضر من الفاقنطورس إلى هنا في لحظة . لأنه ليس للزمان وللمكان حساب في عالم الأرواح . والفاقنطورس أقرب نجم إلينا . فلا يتحمل القادم منه مشقة .

فقال اللورد برتراند رصل : لا والله ما استطعت أن آتي فوراً . وإنما ركبت رأس شعاعة نور فحملتني الى الأرض في ٤ سنين .

فقال هوبل : لا بدَّ أنك قضيت ٤ سنين ويومين أيضاً لأن مرصدي يسجل بُعدَ الفاقنطورس هذه المدة (١)

فقال ادينغتون : عجباً ! مرصدي سجلها في ٤ سنين إلاَّ يومين ، فلا بدَّ أنك غلطان يا هوبل .

فقال هوبل : أبداً . يمكن أن أغلط ولكن مرصدي لا يغلط .

فقال لودج : أحسبها يا برتراند .

فقال برتراند : ضاحكاً هذه لا تحسب بالرياضيات العليا بل تحسب بالرياضيات الروحانية

واشتدَّ النقاش بين العلماء حتى صار المكان كأنه خليَّة نحل أو صالة سيدات والموضوع موضوع زواج وطلاق . الى أن قال لودج : سمعاً يا قوم . سأستدعي روح ابني (٢) ونكلفه أن يرحل من هنا الى الفاقنطورس على رأس شعاعة نور ، ثم من الفاقنطورس الى هنا على رأس الشعاعة ، ونرى كم من الزمان يقضي ذهاباً واياباً.

فصفق الجميع تصفيق الاستحسان .

وبحركة روحانية من قبل السير لودج عتَّم المكان كأن ضباباً غشيه . ثم ظهر شبح ملاك مجنَّح . فأقشعرَّ الحضَّار مهابةً وبعضهم جزع . وقال الملاك : ها أنذا يا أبتِ السير لودج .

---

(١) الحقيقة الفلكية إن النور يصل من الفاقنطورس الى الارض في مدة ٤ سنين وخمسي السنة . وانما جعلناها ٤ سنين من غير كسر متوخين التعبير بسهولة .

(٢) كان للسير أوليفر لودج ابن مات في حرب البوير . وفي ذات يوم قصد الى محضر الارواح وطلب اليه أن يستحضر روح ابنه . فوعده أن يفعل وعين له موعداً عنده . ودعا الروحاني أشخاصاً لحضور جلسة التحضير. وأراه روح ابن لودج على الشاشة البيضاء. وبعدئذ ظهر للمنتقدين ان العالم الروحاني اراه صورة ابنه مأخوذة من قصاصة جريدة. فالعلامة الفيلسوف انغش وصدق. ومن ذلك الحين شرع يبحث في الارواح . وله كتاب في الموضوع بعنوان الايثر والحقيقة · Ether and Reality أثبت فيه وجود الايثر لكي يقول لنا أن الروح هي جسم ايثري متداخل في الجسد الحاضر . فمتى مات الانسان بقي جسمه الايثري سابحاً في الكون.

فقال السير : مرحباً بالابن العزيز : هل أنت في غبطة ؟

نعم يا أبتِ . إني ببركة دعائك ونعمة الله في غاية الغبطة . فماذا تأمرني .

— أرجو منك أن تركب الآن متن شعاعة نور . وترحل الى النجم الفاقنطورس بقدر ما يسرع بك النور . والفاقنطورس جارنا . فلا تعثر في طريقك، لأنه ليس في الفضاء بيننا وبينه نجم آخر . اللهمَّ إلاَّ الأمواج الكهرطيسية . فهو أقرب النجوم الينا .

— اعلم ذلك ، وما من عائق في سبيلي على أي حال .

فقال لودج : بارك الله بك يابنيَّ . الآن الساعة ٤ ونصف من يوم ٤ يناير سنة ١٩٤٠ وحال وصولك الى النجم تثب رأساً من هناك الى هنا وثبة واحدة في لحظة ونحن ننتظرك هنا في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٤٤ لنرى كم من الوقت قضيت في الذهاب .

— سمعاً وطاعة يا أبي .

وفي لحظة انقشعت الغمامة من المكان واختفى شبح الملاك ابن السير اوليفر لودج . وجرت أحاديث ورهانات ، الى أن انفضَّ الشجار وودَّع الزوَّار.

* * *

وكان الزملاء من فحول العلماء كأنهم على رمضاء الصبر مدة ٤ سنين لكي يعلموا نتيجة رحلة روح ابن لودج .

وفي ٤ يناير سنة ١٩٤٤ اجتمع شمل الاخوان في بيت اللورد برتراند رصل . فتغدَّوا عنده بناء على دعوته . وقضوا ، بعد الغداء في أحاديث ومناقشات، الى أن وافى النصف بعد الرابعة فلم يحضر الروح . فاتجهوا الى السير اوليفر لودج . فقال لهم لم يصل بعد الى الفاقنطورس، وإلاَّ لوثب وثبة واحدة الى هنا فيصل في نفس اللحظة، لأن الأرواح تجول في الفضاء كأنه غرفة صغيرة لهم . فصبراً يا اخوان .

مضى النهار وابن لودج لم يحضر ومضى اليوم التالي والزملاء مجتمعون ولم يحضر . فقال لهم هوبل : لا بدَّ أن يحضر غداً في نفس الميعاد لكي يصدق حسابي . أما قلت لكم أن المسافة ٤ سنين ويومان .

فقال أدينغتون : لن يحضر أحد . فما المسألة إلاّ لعبةِ سحرية من السير اوليفر لودج لكي يثبت وجود عالمه الروحاني .

فقال لودج : عجباً ! أما رأيتم روح ابني في الاجتماع الماضي حين استدعيته وكلفته بالمهمة .

فقال أدينغتون ضاحكاً : والله ما المسألة الآ شعوذة . فقد سحرتنا بغمامتك التي نفثتها من صدرك لكي تخدعنا .

فقطب السير لودج وقال : ما عهدي بالعلماء أن ينسبوا الشعوذة بعضهم الى بعض . لم يأتِ الميعاد بعد، فصبراً الى الساعة ٤

* * *

وما قرعت الساعة ٤ والنصف حتى غشي المكان شبه سحابة وإذا روح ابن لودج تظهر فيها . فاضطربوا وجعلوا يحدّقون في الشبح فاذا هو خيال ابن لودج بعينه . فقال أبوه ، اتيت يا بنيّ ؟

— نعم . الآن وثبت من الفاقنطورس الى هنا .

فقال هوبل ، إذن قضيت ٤ سنين ويومين في الرحلة .

فقال لا أدري : لأنه لم يكن معي كرونوميتر ، أنتم تعلمون .

فقال ادينغتون : الحق معك يا هوبل . ولكن دعونا نجرّب تجربة أخرى . فليتكرم الروح ويثب عائداً الى الفاقنطورس في الحال ثم يعود الينا على متن شعاعة نور لكي نعلم كم يأخذ من الوقت في عودته .

فقال رصل : هذا حق . وفي هذه التجربة قد نكتشف شيئاً جديداً . نحن عرفنا المسافة من هنا الى النجم . ولكننا لم نعرفها من هناك الى هنا.

فقال هبل : عجباً يعني هل تتغير المسافة بين الذهاب والاياب

فقال تجينز : نعم . فلنجرب

وأمر السير لودج ابنه أن يثب الى قنطورس، ثم يعود من هناك على متن شعاعة .

واختفى الخيال من الوجود . وكانت الساعة قد صارت ٤و٤٥ دقيقة فسجلوها . ونبّه ادينغتون على الزملاء أن يحضروا في الميعاد بعد ٤ سنين .

فحضروا في الميعاد وحضر الرسول في ٢ يناير بدل ٤ يناير في الساعة أربعة وخمسة وأربعين دقيقة .

فظأظ ادينغتون وقال : أما قلت لكم أن المسافة ٤ سنين ويومان . انها تختلف بين الذهاب والاياب .

فقال هبل : اني مدهوش من هذا الاختلاف . واستفتوا الروح في الأمر . فقال لهم نحن في عالم الأرواح لا اعتبار عندنا للزمان بتاتاً . فأنا الآن أكون في لحظة وراء عالمكم المادي . عالمكم بالنسبة الى عالمنا متقلص في شبر .

وجرى بين الزملاء لغط في الموضوع وكل منهم يبدي رأياً الى أن قال السير تجينز . لا أدري لماذا أهملتم اينشطين . لماذا لم يأتِ في الجلسة الأولى لتهنئة اللورد رصل ، ولماذا لم يدْعُه رصل لهذه الجلسة ؟

فقال برتراند : دعوته فاعتذر بسبب صحته . ولعله استاء مني لأني انتقدته في مسألة .

فقال تجينز : ما هي :

قال : انتقدت حسابه لعدد الإلكترونات كلها في الكون الأعظم فهو يقول إنها ٧١ صفراً أمام رقم واحد وأنا قلت انها ٧١ وكسور بعد الواحد .

— هذه لاتغضب إينشطين ، وهو رجل واسع الصدر . الأفضل أن ندعوه ونستفتيه في هذه القضية .

وعينوا موعداً وكتبوا إليه في الأمر فما تردد أن وافاهم في الميعاد . وكان قد عرف من بعض الزملاء بالمسألة . فوقف فيهم وقال : غفلتم عن نسبيتي التي لا بدَّ فيها من موقف الراصد في كل قضية . وقضيتكم بسيطة . لما راحت الروح الى الفاقنطورس كانت تسير بسرعة النور الى النجم والنجم يمشي قدامها بسرعته . فلما خطت الروح إليه كان قد بعد عن موقعه الأول مسافة يومين فقضى من الوقت يومين زيادة .

ولما وصل الروح من الفاقنطورس الى هنا كانت الأرض أو النظام الشمسي يقرب إليه بسرعتها التي تساوي سرعة الفاقنطورس ، فلاقته قبل يومين من ميعاده . والمسافة بين الأرض والفاقنطورس لا تتغير ولكن المسافة برمتها تسير مع سير النجم والأرض . ولما كان الروح يسير باتجاه سير الأرض الى النجم اضطرَّ أن يسير يومين زيادة لكي يدرك النجم وهو سائر قدامه . ولما كان يسير من النجم الى الأرض كانت الأرض تدنو إليه فبلغ إليها قبل يومين .

وصفقوا لإينشطين وانفضَّ مجلسهم .

بقاء الأصلح

يتفاصح بعض المتفيهقين حين يرون الصهيونيين متغلبين والعرب متخاذلين — يتفاصحون بكلمة دارون المشهورة في نظريته « بقاء الأصلح » كما يزعمون. يتبجحون بها ولا يفهمونها. يعنون أن اليهود أكفأ من العرب في تعمير فلسطين. فيقولون انظر الى مستعمراتهم فيها، ثم الى مواطن العرب ترَ الفرق. لا نناقش هؤلاء في المسألة من حيث الوجهة التطورية البحتة لأنهم لايفهمون ما يقرأون. وإنما نسألهم « بقاء الأصلح » لمن؟ — الأصلح لليهود؟ نعم. الأصلح للعرب؟ لا. فإذاً الأصلح لمن على العموم؟ لأرض فلسطين؟ ... الأرض لا يهمها هذا ولا ذاك. ولا هي تشعر فيما هي فيه من عمران أو قفر. ولكن العرب يكرهون أن يعمر اليهود مساحة من أرضهم، ثم يملكونها، وأخيراً يطردونهم منها. فلا يوافقون على هذه الأصلحية بل يشجبونها ويحاربون لأجلها. فالمسألة ليست مسألة تعمير أو تدمير، وإنما هي مسألة طغيان أفّاقين طغوا على سكان متوطنين بقوّة انكلترا أوّلا وآخراً، وقوّة أميركا أخيراً. فإذاً المسألة هي بقاء الأقوى لا الأصلح أولاً وآخراً.

العرب واليهود هم في فلسطين منذ القديم الى اليوم. أفما شعر اليهود أنهم أصلح من العرب إلاّ اليوم. فما الذي منعهم من استعمار فلسطين كل هذه المدّة من بعد أن شتّتهم تيطس؟ وإذا كانوا أصلح من سواهم للتعمير فلماذا مكنوا دولة بابل منهم؟، ثم دولة مصر، ثم دولة الرومان، ثم دولة الأغريق، ثم دولة العرب، ثم دولة الترك؟. لماذا لم يحتفظوا بالبلاد إن كانوا أصلح من سواهم لها؟، ما الذي قذف بهم من أوروبا الى الشرق والبلاد الأخرى؟ أصلحيتهم أم ضعفهم وتخاذلهم؟. وهل كانوا، ولا يزالون، يستعمرون فلسطين الآن بأصلحيتهم أم بقوّة غيرهم، وبالمال الذي استمدوه من أوروبا وأميركا، ومن نصاراها أيضاً (لا تنسوا هذا)

والذين يلوكون كلمة بقاء الأصلح لاشك أنهم لا يفقهون ما يقولون، ولا يذوقون طعم ما يمضغون ويزدردون ثم يتقيأون. سمعوا كلمتين جاءتا على طبطابهم أي على هواهم فصاروا يتبجحون بالمناداة بهما، كأنهما من مستنبطات فلسفتهم وهم لا يفهمون ماذا يقولون.

« وبقاء الأنسب »، أي المناسب للبيئة كما قاله دارون ومن جاروه في نظرية التطوُّر، ليس الأصلح لشيء من الأشياء، بل لمن، أو لما يمكنه أن يتفق مع البيئة ويعيش فيها. وأما من لا يستطيع أن يعيش فيها فيهلك فيها إن لم يهجرها. وخير تعبير لهذه الحالة هو ما قاله دارون، أي « بقاء الأنسب » (أي الأكثر مناسبة للبيئة) وهي تقابل بالإنكليزية The fittest. فكون الطير يعيش في الهواء والبر ليس أصلح من السمك الذي يعيش في الماء.

وقد عاش ويعيش في البحر حيتان أقوى وأضخم من الدينوسور البري . فلم يكن الدينوسور أصلح وأسلم من حوت يونان . وإنما كان للبر أصلح منه ، والحوت أصلح للبحر من الدينوسور . فلو حاول هـذا أن يزاحم ذاك في البحر لفطس توًّا ، أو ذاك هذا في البر لاختنق في أوكسجن الهواء . فالمسألة ليست اصلحية وإنما هي توافق الحي والبيئة .

ولما غزا البربر الشماليون في أوروبا الدولة الرومانية في آخر أيامها، لم يكونوا إلا همجاً. لم يكونوا أصلح من الرومان، بل كانوا طغاة وبطغيانهم غلبوا . وما أدرانا أن اليهود قد لا يستطيعون أن يعيشوا في هذه البيئة الجديدة إن كان الجو العربي المحيط بهم يخنقهم اقتصاديًّا

بين يدي كتاب لعالم انثروبولوجي كبير هو الدكتور السير ارثر كيث بعنوان « نظرية جديدة في التطوُّر البشري » . وفيه فصل عن عاملي التطوُّر الخطيرين : التكافل والتنازع . سأغنم الفرصة المناسبة لأنقله الى المقتطف لـكي يفهم هؤلاء المتفاصحون معنى « بقاء الأصلح في قولهم » .

في كتابَي « أصل الأنواع » و « تسلسل الإنسان » كان دارون يبحث في التنازع الحيواني . وقلّما تصدّى ، أو لم يتصدَّ ، للتنازع البشري . فقام بعض المغالين في نظريته يطبقون هـذه النظرية على المجتمع الإنساني . ومن جملتهم رحمة الله عليـه ، الدكتور شبلي الشميل ، حتى أنه لما دعا قيصر روسيا نقولا الثاني دول أوروبا لنزع السلاح وتسوية المشاكل الدولية بالتحكيم — ومن ثمّت بنى كارنجي الثري الشهير محكمة العدل في لاهاي لهذا الغرض — لما دعا القيصر دعوته هذه قام الدكتور شميل يصرخ ان هذا القيصر غبي لا يفهم أن الحرب لا بدَّ منها لأنها صورة من صور تنازع البقاء وبقـاء الأنسب . وجعل يبرهن على ذلك بنظرية دارون .

وكنت حينئذٍ على ضعفي وحداثتي مناقضاً له . فناقشته في الموضوع مناقشـة كادت تقضي على شجبه للسلام . وقلت ما فحواه : « ان نظرية دارون تنطبق على الحيوانات أكثر مما تنطبق على البشر ، لأن عند البشر عملية ليست عند الحيوانات . عند الحيوانات عملية « تنازع البقاء » ولـكن يقابلها عند البشر عملية « تكافل الأنام وتعاونهم » ، فهذه تقاوم تلك . فإذا كنا في هذا الزمان لا نرى أن عملية التعاون والتكافل لا توازن عملية التنازع ففي المستقبل ، ولو البعيد ، سنرى التعاون يتغلب على التنازع . والآن نحن نرى في جمعية الأمم ، أو هيئة الأمم ، ومجلس الأمن روح التكافل أغلب على روح التنازع . فان كانت اليوم هذه الحركة في تجربتها الأولى هزأة وسخرية وسخافة ، ففي المستقبل ولو البعيد حين يتغلب الرشد على الغي ستكون نعمة وبركة . هل فهمتم يا هؤلاء معنى بقاء الأصلح ؟

نظرات في النَفس والحياة

— ٢٠ —

تتمة نظرات جوتا

نلخص الأمور التي أخذها عليه النقاد فنقول انهم أخذوا عليه كما يقولون إن نظرته الى الجمال كانت نظرة أغريقية قديمة لا نظرة مسيحية. وإنه كان في اكتمال عمره وشيخوخته لا يتبسط مع بعض زوّاره بل يبدي بعض الجفاء إذا لم يكن زائره ممن يتوقع أن يستفيد منهم ثقافة. وإنه لم ينظم القصائد ولم يكتب المقالات لحث الألمان على قتال الفرنسيين. وزاد على ذلك أنه أخطأ في قَدْرِ قوة نابليون. وإنه لم يمالىء الأحرار الألمان في موقفهم من أمرائهم. وان الثقافة كانت دائرة عنده حول تكميل الفرد فكان بها شيء من الأثرة. وتعجبني صراحة هنري هيني الشاعر الألماني الذي نقد جوتا كما شاء ثم اعترف أن شدته في نقده إنما كانت لأنه حسده عظمته، وربما ظلم هيني نفسه بعض الظلم في هذا القول. فإن مزاج هيني الثائر على كل شيء ما كان يستطيع أن يقدر اتزان جوتا حيث يتزن. وبعد أن كان ينسبه الى البرودة وجفاء القول في شعره عاد يقول ان أغانيه الشعرية أحسن وأعظم الأغاني. وهو فيها أعفُّ قلماً ولساناً من غيره. وأما موقفه من الفرنسيين فإنه لم يؤجر لهم قلمه ولسانه ولا أجَّرَهُ لغيرهم من الأحزاب والطوائف. وقد رفض ما اقترحه عليه نابليون أن يجعل باريس مستقرَّه. ولم تكن المانيا في عهده إلا دويلات متنافرة. وقد أوشكت بروسيا أن تتفق ونابليون على أن يعطيها هانوفر. ثم علمت أنه يخابر الحكومة الانجليزية لإرجاعها الى أسرتها. وكانت بافاريا، وسكسونيا، وورتمبرج، وبادن، وغيرها مع نابليون ولم ينشق عنه أكثر أنصاره من الألمان إلا بعد انهزامه في موقعة ليبزك. ويعترف كل الأدباء أن الأديب يستطيع أن يناصر الحرية من غير كتابة شعر أو نثر سياسي. واما أن الثقافة عند جوتا كانت تدور حول تكميل الفرد وان بها من أجل ذلك شيئاً من الأثَرَة فليس كل الأثَرة من نوع واحد، والأثَرَة التي هي إيثار للثقافة أمرٌ مثمر منتج لم يستغن عنه مثقف. وأما الذين كانوا يريدون أن يُقبِلَ عليهم وهم يضيعون وقته الثمين ثم يشتكون إذا لم يفعل فقد قال فيهم جوتا: — إن أحمق اللصوص هم اللصوص الذين يسرقون وقتك واطمئنان بالك. ولا نريد تبرئته من كل عيب. وإنما نريد أن نظهر ما في نقد النقاد له من التحامل والمبالغة التي تغير الحقائق. والحكم له

بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده، حتى ولو كان في أقوالهم بعض الحق . وفيما يلي تتمة لنظراته مع التعليق القليل على بعضها :

(١) لا دواء يستطيع أن تعالج به شعورك بامتياز غيرك إلاّ بالعطف والمودة لمن هو ممتاز عنك فبهما ترتفع الى مرتبته . أما الحسد والحقد فإنهما لا يعالجان امتيازه عليك، بل بهما تزداد انحطاطاً، ولا يستطيع أن يدرك مظاهر العظمة وصفاتها في الناس إلاّ من كان على صفة من صفات العظمة .

(٢) إني أشفق على الذين يصخبون ويحزنون بسبب فناء كل الأمور ويسترسلون في تأمّل يجعل الحياة عبثاً وغروراً . فإننا ما خُلِقنا إلاّ لكي نجعل الأمر الفاني خالداً بأن نستخلص منه حقيقته وجماله، وهذا لا يكون إلاّ إذا قدّرنا الحالتين حق قدرهما. والذي يستطيع أن يستخلص من الأمور الفانية جمالها وحقيقتها يستطيع أن يقول للساعة العابرة تريّثي .

(٣) يظن المرء أنه إذا تكلم فإنه دائماً يقول ما ينطبق تمام الإنطباق على ما يُحسّ أو ما يُلاحِظ أو ما يُجرّب أو ما يتخيل أو ما يُفكّر فيه، ولكنه إذا فحص الأمر وجد أن كلامه قلما ينطبق تمام الانطباق إذ أن الكلمات التي ينطق بها المرء كثيراً ما تكون الحاضرة التي هي عوضٌ عما لا يؤاتي فهي من قبيل سدّ خانة . وفهم الإنسان وفكره كثيراً ما يكونان أحسن مما يعبر عنهما من الكلام .

(٤) ان الانسان لا يفعل دائماً ما ينبغي أن يثابر عليه من محاولة ازالة ما يعلق بذهنه أو بذهن غيره من الأفكار المخطئة، أو التي لا محل لها أو المقصرة عن الصواب بعض التقصير فيتركها عالقة بذهنه وهو لا يعرف عاقبتها . والواجب المفروض عليه هو أن يثابر على محاولة محوها بأن يكون مقصده واضحاً صادقاً نبيلاً، وتركها عالقة يكون إما من الكسل أو قلة الاكتراث أو سوء النية .

(٥) كل مرحلة من مراحل العمر لها نظرة خاصة وفلسفة هي بها أشبه واليها أحوج . فالطفل لحداثة عهده بالدنيا يتلمس الموجودات، ويتعرف الحقائق الكائنة، فنظرته إذاً واقعية (رياليست) فاذا كبر وصار شابّاً ازداد عاطفة، وأملاً ونظراً الى المستقبل. ومن يزداد من هذه الأمور يكون مثاليّاً (ايدياليست) فاذا اكتمل وصار رجلاً وجرّب أمور الحياة وشك في وسائله وتساءل هل هي تُنجح مقاصده ودبر وحزم أمره لذلك كان عمليّاً (براكتيكال) . فاذا شاخ وهرم ورأى كيف ان الأمور كثيراً ما تأتي عفواً، واتفاقاً وبالمصادفة، وان الأحمق قد ينجح والعاقل الحازم يخيب، وانه كثيراً ما يكون الجيد

والرديء الى مصير واحد. فمندئذٍ يرى الحياة لغزاً وسراً أي يصير (ميسقيك). ولكن ليس معنى ذلك ان هذه النظرات منفصلة في مراحل العمر انفصالاً تاماً. بل كل منها تتعدى مرحلتها، وقد تجتمع في مرحلة واحدة من العمر.

(٦) الشك العامل النشط المنتج هو الذي يحاول دائماً أن يتغلب على نفسه، وأن يصل بالخبرة والتجارب الى يقين محدود. وان يكون همّ صاحبه تطبيق ما وصل اليه بحثه وبرهانه في الأمور العملية.

(٧) يوجد أناس كثيرون يخيل لهم انهم يفهمون كل ما يلاقونه في الحياة من تجارب، وإنما هم يقنعون أنفسهم بذلك كي يستريحوا، إذ الواقع أن في الحياة ولا سيما في اختلاف أعمال الناس وأخلاقهم ما يحير.

(٨) ان الرجل المغرور المعجب بنفسه يطلب مدح الناس اياه، ولكنه لا يطلب هذا المدح أو الاكرام أو الاعجاب لأعمال أو صفات مجيدة، وإنما يطلبه لشخصه مهما كانت صفاته وأعماله، وهذا الطلب ناشيء من شعوره بالنقص فيُحب أن يستعيض عما نقص بالمدح والاكرام، ودافع النقص هذا قد يوجد حتى في ذوي الكفايات والنبوغ الذين يجدون نقصاً في أنفسهم.

(٩) إن السخاء والاريحية أنواع ولكن أصدقها وأحسنها موقعاً وقبولاً السخاء الذي هو عطف التفاهم والتقدير والقدر المنصف.

(١٠) اننا لا نستطيع أن نظل على خلاف مع من يتفق معنا في الطباع والميول. ومهما طال الخلاف فمآله الى الاتفاق. أما الذين يخالفوننا في الطباع والميول فمآل الاتفاق معهم إلى الخلاف، وهذا يشبه قول مارسل بروست ان التداني إنما يكون باتفاق الأمزجة والأذواق والميول، لا باتفاق الآراء والنظريات.

(١١) أكبر خطر على قومنا الألمان مجاراة جيرانهم ومحاكاة الأمم التي سبقتهم الى الظهور والحضارة من غير اتعاظ بعبر التاريخ وعظاته. وأعظم ما يفيد الألمان أنهم لفتوا العالم الى أنفسهم في زمن متأخر بعد أمم كثيرة أي أن الفائدة في إتعاظهم بما في حياة من سبقهم — وما فات جوتا ما لفت النظر اليه في مكان آخر من أن التجارب لا تكتسب بالتلقين، فكما أن الحياة تبدأ تجاربها من جديد إذا كانت حياة الآحاد من الناس أو الاجيال أو القرون، فكذلك حياة الامم. وهو يعلم ذلك ولكن صنعه في إرشاد قومه وعظهم صنع المعلم الذي يحاول ان يجعل المتعلم يكتسب خبرة بالتعليم سواء أأفادته أم لم تفده كل الفائدة.

[يتبع] ع . ش

صفحة طويت

علي مصطفى مشرفة باشا

في عام أو يزيد قليلاً ، رزئت مصر في عالمين كبيرين من أعلامها الأفذاذ هما الدكتور حسن صادق باشا العالم الجيولوجي المشهور ، والدكتور علي مصطفى مشرفة باشا العالم المرموق في شؤون الذرّة وشطر نواتها والطاقة المنبعثة منها والقوة المدّخرة فيها .

المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة باشا

ومن عجائب الاتفاق ، أن هذين القطبين الكبيرين لقيا ربهما على حين فجأة أثر هبوط في القلب . فكانت الخسارة في فقدهما أكبر من أن تعوّضها الأيام .

علي مصطفى مشرفة ، يقترن اسمه باسم كلية العلوم في القاهرة ، فقد كان أستاذاً فيها ،

ثم عميداً لها ، ثم رئيساً لجامعة فؤاد بالنيابة أيّام زار مصر عاهل الجزيرة العربية . وفي مختبرات هذه الكلية أجرى تجاربه ، وعلى طلابها ألقى محاضراته ، وفي أفنائها ناقش نظرياته ، ووقف حياته على العلم يعمل لترقيته في دأبٍ وإصرار ، ويتابع النشاط العلمي في الخارج عن كثبٍ ، ويواليه بالرأي آناً والفتوى آناً حتى كان علي مصطفى مشرّفة مرجعاً من المراجع الأصيلة التي أشار إليها في مباحثه أئمة علماء العالم مثل السر جيمس جينز والسر أوليفر لودج وحتى استعانت به جامعة برنستن الأميركية — التي تعدّ الأولى بين جامعات الولايات المتحدة — ليحاضر على طلابها كأستاذٍ زائرٍ دوليّ الثقافة فريد العرفان .

وفضل الدكتور علي مصطفى مشرّفة لا يقتصر على خدمة العلم في دوائره الضيقة، وفي معامله الموصدة الأبواب ، وفي أحرامه المصونة ، بل يمتدّ فضله فيشمل القارئين عامّة والسامعين جملة، لأن مشرفة باشا مبسّط للعلم ، خاضد لشوكته ، يكتب بأسلوب لا يرتفع إلى التكلف العسير المأتى ولا ينخفض إلى الركاكة المبتذلة ، يعبّر عن المعنى العلمي الدقيق من أقصر الطرق كأنه رياضيٌّ يدرك أن الخط المستقيم أقصر من الخط المنحني . ومن مؤلفاته الشعبية — وفرقٌ كبيرٌ بين الشعبيّة والسوقية — كتاب « مطالعات علمية »، وكتاب « الذرّة والقنابل الذرية »، وكتاب « نحن والعلم » عدا عشرات من المحاضرات رددها من المنابر العامّة ، وعدا مئات من الأحاديث طيّرها اللاسلكي من القاهرة لنشر ألوية العلم خفّاقة عالية .

والدكتور مشرّفة من الدعائم التي استندت إليها بضع من الهيئات العلمية العاملة في مصر ، وهو من المراجع التي كانت تستفتيها الجامعات والمجامع الأجنبية في شؤون العلم . فهو من مؤسسي المجمع المصري للثقافة العلمية الذي يعمل من عشرين عاماً على اشاعة الثقافة العلمية في أوسع نطاق ، ولو أنصف المنصفون لوجدوا في الدكتور مشرفة عضواً عاملاً لا ضريب له في مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، ولكن مما يدعو إلى الأسف والأسى أنه ظلّ مقصيًّا عن هذا المجمع أسوة بالمغفور لهما خليل مطران بك واسعاف النشاشيبي .

وفي اعتقادي أن ضمّ عالمٍ إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية أجدى على الضاد وعلى المجمع وعلى الحركة الأدبية والعلمية في الشرق عامّة ، من ضمّ فقيه في اللغة مفتقرٍ إلى

ثقافات غربية واسعة . ولو قيل إن عضوية المجمع مقتصرة على بضع عشرات من الأعضاء ، لقلنا : ولِمَ لا يزاد عددهم لأن المقصود بالمجمع أن يضمّ أقطاب الفكر ، فإذا زاد عددهم زاد بالتالي عدد أعضاء هذه المنشأة الكبيرة .

طويت إذن صفحة الدكتور علي مصطفى مشرَّفة باشا بعد جهادٍ كان نعم الجهاد ، وبعد بلاء في ميدان العلم بُورك به من بلاء .

طويت صفحة عالم يدرك أن الانسان مهما دانت له سلطات الطبيعة ، ومهما أسلست له قوى المجهول قيادها ، ومهما ارتقى في مراتب الجاه والمعرفة والشهرة ، يجب أن يظل مبقيا على بساطة النفس وسماحة القلب ووداعة الروح وطيب العشرة . فالكبرياء ليست من شيم العلماء ، والاستعلاء بعيد عن حظيرة المشتغلين بالعلم .

طويت صفحة علي مصطفى مشرفة الذي كان لمصر عنوان نهضة في الخارج ، وكان لبلاده شرفاً تعتز به في حلبات الرأي العلمي ، وكان لنا رائداً شق طرقاً عصية غير معبدة وأطلعنا على أبواب للعرفان جديدة .

طويت صفحة عميد العلم وركنه الركين في وادٍ للنيل خصيب .

طويت صفحة رجل يقارع علماء الغرب ويصارعهم ، يصاول أصحاب النظريات العلمية المستحدثة ويطاولهم ، يوزن كلامه بميزان الذهب لأنه لا يقول إلاّ ما يجدي وينفع .

فالخسارة في مشرَّفة باشا خسارة هيهات أن يخفف من وقعها العزاء ، ولا سيما لأنها جاءت بعد وفاة صديقه وخلّه الدكتور حسن صادق باشا . فقد آن للعقل المثقل بالمعرفة أن يطرح عنه عبء الإجهاد ، وآن للذهن الحاضر أن يهدأ بعد كلال ، وآن للرجل الذي عرف أسرار الكون أن يعرف سرّ المنيّة ، وآن للركب أن يبلغ مبغاه .

في فقده يصدق قول مطران :

برغم المُنى ذاك الختام المحيِّر   كتابك تطويه ومنعاكَ يُنشر
دهاك الردى في الرائحين فراعنا   كأنك غادٍ في الصبى فمبكّر
يراعك في اليمنى وذهنك حاضرٌ   وعزمك ذاك العزم ، والعود أنضر
أعن سبق إحساسٍ بما كان مضمراً   زمانك آثرت النوى حين تؤثر ؟

وديع فلسطين

Orientalisches Seminar Freiburg i. Br.

الأديان في فطرتها

(هذا فصل ترجمناه من كتاب « فلسفة الاديان » للدكتور رايت)

يبدو من القلّة التي ترامت إلينا أنباؤها عن المعتقدات الدينية لإنسان ما قبل التاريخ، أن المعتقدات الدينية والممارسات المتصلة بها لا تختلف كثيراً عن الأديان والمعتقدات المألوفة اليوم في بلاد البدائيين أو آكلي لحوم البشر. فاذا قابلنا بين المعتقدات الدينية عند البدائيين الذين يتفاوتون مراتب من حيث تقدمهم وارتقائهم أمكننا أن نستحوذ على رأي عن كيفية نشأة الأديان بين الناس، واحتفالهم بها كممارسة منفصلة عن سائر الممارسات، ثم عن الاتجاه العام لتطوّرها بين أسلاف الأمم المتحضّرة.

وخليقٌ بنا أن نستهلّ هذا الفصل بتلخيص مراحلِ تطوُّر الدين عند الأجناس الشديدة التخلف في مضمار الحضارة مما لا تزال فلولٌ لها باقية على قيد الحياة اليوم، وهي أجناس يفتقر رجالها إلى الذكاء وإلى النظم الاجتماعية. ومن هذا اللون، سكان « فيداس روك »(١) في سيلان، و« الفوجيون »(٢) الذين يقطنون « تيرا دل فيجو »(٣)، وزنوج أواسط أفريقيا. ولم يتسنّ لنا الظفر بأنباء مفصلة عن هذه القبائل في الأمور التي تستأثر بأكبر عنايتنا كطلاب علم « الأديان المقارنة »، غير أن من الخيرِ البدء بجنس آخر لا يزال في طورٍ من الرقي سابقٍ لنشوء الأديان وصيرورتها جزءاً منفصلاً من نشاط الانسان، لها منشآت ومعابد ذات طابع خاص.

وكما أن علماء الأحياء يرون ان من الفطنة استهلال بحوثهم بتقصّي التطوُّر الحيواني مبتدئين من الأميبا التي لم تتميز فيها وظائف الحياة كالتنفس والدورة الدموية والتمثيل الغذائي والتبرز والتناسل والحركة، لأنها خليّة واحدة بسيطة، كذلك نرى من الحكمة لطلاب علم الأديان المقارن أن يبدأوا بالشعوب التي تمارس الأديان المندمجة، أعني الأديان التي ما برحت جزءاً متداخلاً مع أوجه نشاطها الأخرى. وتلك هي في الواقع حالة الدين

---

(١) Veddahs Rock
(٢) Feugians
(٣) Tierra del Fuego

عند بعض قطّان استراليا ، وهذا هو السبب الذي يحدو بنا الى استهلال هـذا الفصل بالحديث عن الاستراليين .

وثمة أسبابٌ أربعة أخرى تجعل لسكان استراليا الجلف شأناً عند المبتدئين في درس الأديان يعلو على سائر الأجناس البدائية الباقية حتى الآن على قيد الحياة ، والأسباب هي :

أولاً — يبدو أنهم أدنى الأجناس الفطرية من حيث الارتقاء ، كما أن لدينا تقارير وافية موثوقاً بها عن دينهم . فقد أجرى الأستاذان سبنسر وجلين (١) والأستاذ هويت (٢) بحوثاً حسنة الاستقصاء والتدقيق تدلّ على جلدٍ ومثابرة ، وأكد صحتها من بعدهم الأستاذ ستر هلو (٣) وسواه .

ثانيا — احتلت هـذه الأجناس قارّة بأسرها ، وفي وسعنا بلا ريب أن نطمئن إلى النتائج التي نظفر بها عن الأجناس الأسترالية أكثر من ثقتنا بالأجناس القليلة العدد المنعزلة عزلاً نسبيًا .

ثالثاً — لم يتح لهذه الأجناس أن تتصل بأجناس أخرى إلاّ في عهدٍ قريب . وقد استطاع الأستاذان سبنسر وجلين أن ينقلا إلينا الدين الأسترالي في نقاوته الفطرية قبل أن يتأثر بالآراء التي حملها المبشرون والتجار .

رابعاً — وهو سببٌ له شأن عمليّ ، أن عـدداً كبيراً من النظريات الحديثـة المتعلقة بأصول الدين وطبيعته يرتدّ إلى هاته الشعوب ، ولا يمكن توضيحه بغير الاشارة إليها .

* * *

لعلّ سكان استراليا المتخلفين هم أكثر الأجناس البشرية فطرة ، فما فتئت حالتهم الاقتصادية في الحضيض ، وما برحوا يأبون تربية الماشية أو قطعان الغنم ، ويصدفون عن فلاحة الأرض .

الرجال منهم يقنصون الكنغر والنعام والحيوانات المفترسة ، ويتوسلون ببعض المهارة والذكاء الى قنصها . أما النسوة ، فهنّ يتصيدنَ الحيوانات الصغيرة كنحل العسل والسحالي ويجمعنَ الخضر النامية من الحقول والبراري كيفما اتفق . ومع أن الشتاء يكون في العادة قارصاً ، ومع أن لياليه تكون في الأغلب ذات صقيع ، فانهم لم يتعلموا بعد كيف تصنع الملابس للوقاية من الزمهرير ، وهم لذلك يرحبون بكل لباس يمنحهم إياه الرجال البيض .

أما الأكواخ التي يأوون اليها ، فهي فطرية إلى أقصى حد ، ولا تزيد على كونها بضعة من الأعشاب مرتبة بكيفية تحمي قاطنها من الرياح العاتية .

---

(١) Spencer and Gilln (٢) Howitt (٣) Strehlow

وفي وسع أولئك الاستراليين الجلف أن يحصوا الأرقام الخمسة الأولى (أي من ١ الى ٥) بغير عناء ، ولكنهم يعنَتون النفس إذا أرادوا استيعاب ما بقي من أرقام حسابية. ولكنهم رغم هذا التخلف الحضاري الكبير ، استحدثوا لأنفسهم نظاماً معقداً من «الطواطم» (١) والقواعد المتقنة التي يذعن الزنوج لها .

ولعلَّ مما يثير الدهشة أن نعرف أن هؤلاء القوم خلوٌ من الأفكار الدينية التي نحسبها أساسية جوهرية . فهم مثلاً لا يرددون أدعية أو صلوات ، ولا يحاولون الاتصال بأي نوع كان من الأرواح أو الآلهة أو الكائنات غير الملموسة وغير المرئية ، وليس لهم كهنة أو معابد حتى ليقال أحياناً إن أولئك الفطريين ينتمون الى العصور السابقة لنشوء الأديان وان ثقافتهم الفطرية سبقت ظهور الدين بين الانسان .

وعلى كل حال ، يصح القول إن الأديان تنتشر بينهم في حالة غير مميزة (أي أنها غير منفصلة عن أوجه نشاطهم الأخرى) لانهم يملكون بعض الأصول الدينية التي لها نظائرها بين الأجناس التي تفوقها حضارة ورقيًّا .

ففي استراليا قبيلة تعرف باسم «أرنتا(٢)» لها عادات نوجزها في ما يلي :

يمر الطفل المنتمي الى هذه القبيلة في أربعة أدوار لتدشينه . فيحل موعد الدور الأول عند بلوغ الطفل العاشرة أو الثانية عشرة من عمره ، فيجتمع الرجال والنساء في منطقة متوسطة قريبة من المخيم الرئيسي ، وينتقى الأطفال الذين بلغوا السن القانونية واحداً واحداً ، ويطوّح الرجال بهم في الهواء ، ثم يتلقونهم لدى سقوطهم ، بينما تشرع النسوة في الرقص حول الجماعة ، ويمددنَ أيديهنَّ ، ويصرخنَ صرخات مدويات. ثم تدهن صدور الاطفال وظهورهم بالألوان الحمراء والصفراء ، ويحاطون في أثناء ذلك علماً بأن المراسم التي يجتازونها الآن إنما هي لترقيتهم الى طور الرجولة ، فلاينبغي لهم أن يلعبوا في المستقبل مع النساء أو الفتيات أو معاشرتهنَّ في مخيماتهنَّ ، وانه يجب عليهم الالتجاء من تلك اللحظة الى مخيمات الرجال، وان يقلعوا عن مرافقة النساء في أثناء تجوالهنَّ للبحث عن الخضر وقنص الحيوانات الصغيرة كالسحالي والجرذان ، وان عليهم أن يصحبوا الرجال عند خروجهم لصيد الحيوانات الكبيرة المفترسة . وبعد اتمام هذه المراسم ، يتطلع الصبية الى الوقت الذي فيه يكونون قد أتموا عمليات تدشينهم . ومن ثم يحق لهم أن يقفوا على أسرار القبيلة

---

(١) الطوطمية Totemism — أي تقديس الحيوان أو النبات (٢) Arunta

والطور الثاني من أطوار تدشين الطفل ، هو الختان ، وتصحبه عادةً حفلات أوسع نطاقاً من سابقتها ، ويكون الطفل قد تقدَّم في العمر قليلاً .

وقد شهد السائحان البريطانيان سبنسر وجلين إحدى هذه الحفلات الطقسية ، ووصفاها بالتفصيل . فقالا : إن الطفل الذي يراد تدشينه يمسك به ثلاثة شبان يصرخون صراخاً عالياً ويحملونه إلى الموضع المعدّ إعداداً دقيقاً لإجراء المراسم ويكون بعيداً عن مرأى النساء والأطفال . والغرض الرئيسي من هذه العزلة الجنسية الجزئيـة هو أن يطبعوا في ذهن الصبيّ انه أوشك أن يرتقي إلى مرتبة الرجال ، وإن هذا حدٌّ فاصل بين حياته القديمة وحياته الجديدة التي يزمع الارتقاء إليها .

ومما يساعد على أن ينطبع في ذهن الصبي ، بصورةٍ قوية ، شعور عميق بضرورة السير وفقاً لنظم القبيلة واحترام فائق للمكانة السامية التي يتمتع بها الرجال الذين يفوقونه سنّاً والذين يعرفون جميع الشعائر الغامضة ويلمّون بها — مما يساعد على ذلك ، جهل الصبيان الكلي بما خبيء لهم ، وشعور الواحد منهم بأن شيئاً غير عادي سيقع له ، وهو شيء ذو طبيعة غامضة .

وبعد أربعة أيام ، يُحمل الصبي إلى مكان معين معدّ له بالقرب من مكان المراسم الخاص ، ويوضع تحت رقابة شديدة . ويظلّ في الأيام الأربعة التي تلي ذلك بمعزل تام عن الناس ، باستثناء بعض فترات معينة يؤتى به فيها ليشاهد للمرة الأولى في حياته أنواعاً مهيبة من الطقوس ، تصوِّر له الحيوانات الطوطميّة وأسلاف القبيلة على الصور التي يُظن أنهم ظهروا فيها وتصرّفوا بها في حياتهم . ويستعينون على تصوير ذلك بالرقص والغناء والتمثيل والايماء . ومن صباح اليوم التاسع إلى مسائه ، تزيد الطقوس وتتكرر وتصبح جدّ مثيرة . وفي أثناء الليل التالي يستمع الصبي — في فترات — ووجهه ملثم إلى غناء أغنية « النار » . ولدى انبلاج فجر اليوم التالي يدهن جسمه بالألوان ثانيةً ويشاهد بعض الطقوس ويصغي الى صرخات وأغانٍ طوال النهار . وبعد الغسق توقد نار كبيرة ، ويزمجر رجال القبيلة كالثيران ، وتدوي صرخاتهم تشق عنان السماء وتصم الآذان — ويحسب الأطفال والنساء أن هذه الأصوات صادرة عن روحٍ هائل جاء ليخطف الصبيّ ويهرب به في الغابة . وفي أثناء ذلك تجري عملية مؤلمة بوساطة مدية صغيرة من حجر الصوان ، ويهنأ الصبي عقب ذلك لأنه لم يصرخ أو يتوجع ، ثم يطلع على بعض الأسرار الرمزية التي يعتقد انها تعجِّل ببرئه من جراحه ، وهي أسرار ينبغي عليه أن يحرص عليها ولا ينساها لئلا تنزل به وبأفراد عائلته عقوبة الموت .

وحين ينتهي من إجراء هذا التدشين يستبقى الصبي تحت إشرافٍ دقيق ، ويمنح وقتاً كافياً يتيح للجرح أن يبرأ يتفاوت بين خمسة أسابيع وستة . وعليـه بعد ذلك أن يجتاز دور التدشين الثالث وينتهي عادةً بعملية مؤلمة أخرى يطلق عليها « التشريط »(١) ، ويصحب هذا الدور كذلك شعائر كثيرة الزخرف تكشف للصبيّ عن الحِكَم والتقاليد السرية للقبيلة . أما الفتيات ، فإنهنّ يجزنَ في طور مماثل نوعاً ما ، غير أنه أبسط منـه . والغرض من هذا تأكيد النموّ الجسدي للفتاة وإطلاعها على حِكَم القبيلة وتقاليدها السرية ، لأنها تكون قد ارتقت إلى مرتبة المرأة المكتملة النضوج .

وبعد بضع سنوات من إجراء هذا التدشين — ويكون الصبيّ قد شبّ وتخطى العقد الثالث من عمره (من ٢٥ الى ٣٠ سنة) — يؤدي مراسم التدشين الأخيرة ، وهي أغنى المراسم بالزخرف والزينـة ، ويطلقون عليها اسم « انجورا » (٢) أي النار ، لأنها تنتهي بأن يحمل الشاب على النوم أربع دقائق أو خمساً على فروعٍ خُضر من فروع الشجر موضوعة فوق جمرٍ ساخن متوهج . وتستغرق هذه المراسم شهوراً . ويقول السائحان سبنسر وجلين ان المراسم التي شهداها استغرقت من منتصف شهر سبتمبر الى منتصف يناير من العام التالي . وفي هـذه الفترة يجتمع الرجال والنساء من جميع أرجاء القبيلة ومن القبائل النائية ، وتجري كل يوم مراسم مختلفة يتفاوت عددها من اثنين إلى ستة تصحبها زخارف وزينات كثيرة . ويجتمع كبار رجال القبيلة في هيئة مجلس أو مؤتمر ، ويكررون حِكَم القبيلة وتقاليدها ويناقشونها حتى تُطبع ولا تنسى ، ويكون ذلك على مسمع من الشبان الذين يدشنون . ثم يخرج كبار رجال القبيلة الأشياء والمواد المقدسة(٣) ويفحصونها . وبعد ما يمرّ الشاب في هـذا الطور يقال إنه أصبح « أوليارا »(٤) أي عضواً كاملاً في القبيلة واقفاً على دقائقها ، ويقول الوطنيون أنفسهم أن لهذه المراسم تأثيراً كبيراً في تقوية الذين يمارسونها ، فهي تغرس فيهم روح الشجاعة والحـكمة ، وتجعـل الرجال لطفاء في معاملتهم ، مُعرضين عن الشجار والقتال . وبدهي أن الهدف الرئيسي لهذه الفريضة هو :

أولاً : إذعان الشبان لإشراف كبار السن وقيادتهم حتى يصدعوا بأوامرهم .

---

(١) Sub - incision

(٢) Enugwra

(٣) Churinga

(٤) Uliara

ثانياً : تدريبهم على ضبط النفس ومواجهة الصعاب .

ثالثاً : اطلاع الأحداث الذين بلغوا سن البلوغ على الأسرار المقدسة للقبيلة ، وهي الخاصة بالأشياء المقدسة والطوطم الذي ترتبط به القبيلة .

وينتمي كل مواطن في أستراليا الى طوطم ، أي الى حيوان أو نبات . أي ان المواطن (أو المواطنة) مرتبط بطريقة غامضة بنباتٍ معين أو بحيوان معين . والحق أن الفطريين لا يعرفون بالضبط نوع هذه العلاقة بينهم وبين النبات أو الحيوان ، وهم — لأنهم جُلْفٌ متخلفون — لا يشعرون كما يشعر المتمدينون بحاجتهم الى تفسير كل شيء تفسيراً منطقيًّا يقبله العقل . فهم يقولون عن هذا الرجل مثلاً أنه « نعامة » ، أو « كنغر » ، أو أنه ليس « بسحلية » ... الخ ، وهذا في عرفهم هو ختام الأمر كله ، ولا مدعاة للاستطراد . وتختلف التفسيرات — إذا أبديت — اختلافاً بيناً بين القبائل الأسترالية المختلفة وبين الأجناس البدائية الأخرى في جميع أرجاء العالم . فتعتقد قبيلة « الأرنتا » مثلاً أن في كل فردٍ من أفرادها روحاً تناسخت ، إما عن أحد أسلافه من نفس « الطوطم » مباشرةً ، أو من روح حيوان « الطوطم » ذاته بمعنى أن الروح الكائنة في رجل ما ، إما أن تكون روح أبيه أو جدّه أو سواهما ممن كانوا ينتمون الى « الطوطم » الذي يدين به ، أو أن تكون روح الحيوان الطوطمي .

ولما كان المرء مرتبطاً بعلاقة غامضة مع « طوطمه » وجب ألاّ يأكل هذا الحيوان أو النبات إلاّ في حالات نادرة تقتضيها المراسيم . وهذه الوحدة أو العلاقة تمدّ المرء بالقوّة التي بها يستطيع أن يزيد إنتاج النباتات أو الحيوانات الطوطمية لمصلحة أفراد الطواطم الأخرى . ويستدعي تحقيق هذه الغاية مباشرة بعض الطقوس الطوطمية . وفي بعض المراسم المعروفة باسم « إينتشوما » يأكل المشتركون في هذه المراسم الطعام الطوطمي المقدس على الرغم من تحريم أكله في الأوقات الأخرى ، كنوع من نحر الذبائح . وتلجأ قبيلة « الأرنتا » إلى أكل الطعام الطوطمي في حفلات عامة يشترك فيها جميع أفراد القبيلة كضربٍ من المشاركة . وذلك لتأكيد رغبة لا يمكن تحقيقها بالوسائل البشرية العادية . غير ان أكل الطعام الطوطمي ليس مما يمارسه بعض القبائل الأسترالية في المراسم ، كما أنها لا تزيد شأناً على التفصيلات الأخرى الخاصة بالطقوس

لماذا تعد الحفلات الأسترالية دينية

وإذا نحن تدبرنا هذه الحفلات الأسترالية الآن رأينا فيها بعض مميزات الأديان السامية. فعند ما يعتنق الشاب اليهودي ديانته، أو عند ما يعترف المسيحي للمرة الأولى بمسيحيته ويتقدَّم الى « الشركة المقدسة » وينضم الى الكنيسة، أو حينما يتلقى الصبي البوذي التعليمات الدينية الأولى ويقسم القسم المثلث المقدس وهو: « أحتمي ببوذا، وأحتمي بتعاليمه، وأحتمي في الاخوة » — نسأل ما شأن هذه الأعمال من الناحيتين الاجتماعية والشخصية؟ إن هذه الشعائر بالنسبة للحدث اليهودي أو البوذي أو المسيحي معناها توسيع أفق حياته وزيادة قيمتها. انها تعمق فيه وتوسع أمامه وتعزز فيه الآراء والمثل التي تعلمها أولاً عند ركبتي أمه والتي ظلت منذ ذلك الوقت مطبوعة فيه بوساطة سلوك الذين يكبرونه سنًّا وبآرائهم. وتصبح جميع فروض العبادة التي كانت تبدو أمامه ظاهرية حتى الآن، لا يرى الا مظاهرها الخارجية — تصبح ذات شأن أعلى وأكمل.

فلأول مرة يمسى إدراكه العقلي سديداً، ويصبح تصرفه التأثري تجاهها شخصياً قلبيًّا. فيضع اليهودي قانون موسى ومحبة يهوه في سويداء قلبه وعقله، وتصبح القواعد الثماني للسلوك عند البوذي، خارطة الحياة وبوصلتها، ويعتمد المسيحي على المسيح ويكرّس حياته لخدمته.

ويبدو أن حفلات التدشين تحقق للسود الاستراليين أعمالاً مماثلة، فمن الناحية الاجتماعية تصون الحفلات لهم ما يقدسونه ويعتزون به من ماضيهم، ثم تنقله الى الجيل التالى. ومن الناحية الفردية تؤكد أن الذين دُشنوا، تلقوا هذه الأمور بالإطار العقلي الملائم، واتصفوا بالهيبة والتواضع المقرونين بالغبطة والنشوة العاطفية الشديدة. وإن قيم الأديان السامية لتفضلها أخلاقيةً وروحيةً. كما أن هناك وسائل أكثر نقاءً من وسائل التعذيب البدني، والالحاح في السرية والغموض، وهي تستخدم لتقود الشاب المدشن الى توقير المبادىء المقدسة وجعلها أساساً لحياته. واذا راعينا الفارق في مستوى الرقي أمكن أن نقول ان تلك الحفلات الاسترالية تقابل شعائر الأديان السامية. ونستطيع بذلك أن نقرر أن لقطان استراليا الجُلْف ديناً.

وديع فلسطين

خلود الحياة(١)

في فلسفة اقبال

كان شبح الموت المخيف الرهيب يبدو أمام الناس جسيماً عظيماً ، وبقدر ما كانت جسامته وخطره كان في عين اقبال ضئيلاً متلاشياً . لعله كان يرى أن العقبة الكؤود في طريق رقي المسلمين الحرص على الحياة ومخافة الموت . أو كما عبر عنه الرسول الأعظم حب الدنيا وكراهية الموت . وقد وجد أن خوف الموت ليس معناه الا أمراً واحداً وهو ترجيح حياة الذلة والعبودية على موت الشرف والكرامة . فحاول أن ينتزع هذا المرض النفسي من صدور أهل الاسلام مبيناً أن خوف الموت والايمان لا يجتمعان في قلب واحد ، وان الذين تسنموا غارب العزة والشرف هم الذين يحملون رؤوسهم على أكفهم في ميدان الكفاح ولا تنخلع قلوبهم فرقاً ، ولا ترتعش عزائمهم جبناً . وإنما يقبلون على الموت اقبالهم على العرس ، ويفرحون بالتضحية فرحهم بالنصر ، مؤمنين بالفوز في الدنيا أو السعادة بلقاء الله .

(قل هل تربصون بنا الا إحدى الحسنيين) (فأما النصر وأما الموت فيه الفخر)

ثم يذكرنا اقبال بأسلافنا الماضين الذين ملكوا الممالك وأدالوا الدول ووطئت خيولهم القلاع والحصون وما اشتروا هذا المجد الا بدمائهم . فهو في قصيدته الشكوى يذكرنا بهذه الحقيقة في جلاء حيث يقول : —

فوق الصوامع والكنائس صوتنا   قد كان يعلو بالأذان جهارا
تترنم الصحراء في أفريقيا   بصلاتنا وتسابق الأطيارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا   لم نخشَ يوماً غاشماً جبارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة   خضراء تنبت حولنا الأزهارا

---

(١) مقتطفات من الكتاب الذي سيظهر قريباً بعنوان « فلسفة اقبال والثقافة الاسلامية في الباكستان والهند » ترجمة الاستاذ محمد حسن الاعظمي عميد كلية اللغة العربية في الباكستان والسكرتير العام للمؤتمر الاسلامي الدائم والشيخ الصاوي شعلان دبلوم معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد »

ثم يقول : —

لو فرّت الآساد من أجامها   لم يلق غير ثباتنا الميدان
وكأن نيران المدافع في صدور المؤمنين الروح والريحان

* * *

ويصف ذلك المسلم الذي ينطلق كالسهم النافذ الى العدو بعد أن يكبر تكبيرة الجهاد في الميدان فيقول : —

ذلك المؤمن المجاهد يغشى   غمرة الحرب والرّدى يخشاه
تحت ظل السيوف ماض قوي   درعه لا إله إلاّ الله

يبين لنا بعد ذلك ان الحالة قد تغيرت ، وان سنة الأقوام قد تبدلت ، واستحكم الجبن في قلوب الكثيرين من المسلمين ، وأصبحت وجوههم تصفر اصفرار الشمس عند الأصيل اذا ذكر الموت أو الحرب .

ثم يخاطب الذين يتقاعسون عن الجهاد ، ويتخلفون عن النضال قائلاً : (ان خطباء منابركم ووعاظ أنديتكم أصبحوا غير نافعين ولا مغنين عنها) . ثم يقول : —

لم يبق في يد مسلم درع ولا   سيف يصول به ليوم جهاد
لو أنه وجد السيوف فهل له   ذوق الخلود وحب الاستشهاد
من كان يجزع من منية كافر   هل يستطيب مصارع الأمجاد

إذا كان المرء مخلصاً لله حق الإخلاص ، واذا كان واثقاً بأن الموت ليس إلاّ العقبة الأولى التي يجتازها المرء الى الحظيرة الأبدية والمتعة بلقاء الله . أقول اذا كان الايمان هكذا فلا محل للخوف من الموت . أما أولئك المضطربون الخائفون فهم أولاً شاكون في لقاء الله وفي الخلود ، ثانياً فهم يعبدون المال ويؤثرون الحياة الدنيا ويظنون أن هذه الحياة المادية هي المرحلة الأخيرة للسعادة ، لذلك يخشون أن يموتوا فيحرموا . وإقبال يحكم على هؤلاء بأنهم فقراء ، وان نارهم لا تساوي التراب ، وهم على كل حال سيموتون طوعاً أو كرهاً .

المؤمن الحق كان الله غايته   والله كان لديه السمع والبصرا
والآن أضحى اله المال كعبته   وخوفه الموت أفناه وما شعرا
سيان في الشرك هذا عابدٌ ذهباً   يسعى الى جمعه أو عابدٌ حجرا
يا مؤمناً بلقاء الله مالك في   ذعر من الموت قد أشبهت من كفرا
قد عاد قلبك ميتاً بين أضلعه   كأنه في حنايا الصدر قد قبرا

من كان يحسب ان الموت هاوية   وانه عدم يستأصل البشرا
فنار آماله ينحط عنصرها   الى التراب ويلقى الموت محتقرا

لما كان سم الموت سارياً في كل الدماء البشرية فقد حاول اقبال ان يوجد من نفس السم ترياقاً . وكيف استطاع أن يصل بمهارة الى استخلاص هذا الدواء الغريب، انه عمد الى تذكيرنا بأن الموت أمرٌ محتوم ، وان لكل انسان أجلاً محدداً ، وإذا كانت هذه النهاية قضاء نافذاً في الخلائق فالخوف منها لا يجدي فتيلاً . ومحاولة الفرار مع كونها جبناً وانحطاطاً في الوجدان فهي مخالفة لحكم العقل وصواب التفكير أيضاً . فالعاقل لا يفكر في النجاة من القضاء المبرم، كما لا يفكر في أن ينفذ من أقطار السموات والأرض، وهو في هذه الحالة الى الجنون أقرب وبالمجانين أشبه . ولهذا عرض لنا عدة صور تمثل فناء هذا الكون، وهي صور من حوادث الطبيعة تحمل الينا فناً بديعاً في منظرها الرهيب المخيف، وتذكرنا عند مطالعتها بعوالم السماوات والأرض جميعاً في طريقها الى الانتقال أو الزوال وكما انها تعالج فينا خوف الموت ، فهي كذلك تنبهنا من غفلتنا ، وترفع عن أعيننا أغشية الغرور والركون الى زهرة الدنيا وفتنتها .

تحت نور الأفلاك عيش جميل   وأرى النور ينطفي ويحول
وعلى كاهل المساء ترى للشمس نعشاً بكى عليه الأصيل
في سنا البدر للكواكب أكفان توارى بها الشعاع النحيل
بينما هذه الجبال حصون   واذا صخرها كثيب مهيل
وتقيم الأمواج في البحر أبرا   جاً ومن أوجها الرفيع نزول
ورياح الخريف تكمن للزهر   وفي ثغره ابتسام بليل
ثم تأتيه ساعة يذهب الزهر   هشيماً وقد طواه الذبول
ليس زاد المسافرين سوى الخوف من الموت والحياة رحيل

* * *

ربَّ لحن فاق البلابل سحراً   في ضمير الأوتار مات حنينا
شرر النار قبل أن يبلغ المهد   توارى تحت الرماد دفينا

* * *

قطرات الندى على الورد تجري   لؤلؤاً سائلاً على مرجان
لم تكد تسعد النواظر حتى   بدَّد الريح شملها في ثوان

* * *

إن كأس الردى تطوف على الدنـيا   ويسقى أبناءها أجمعينا
وبلا موعد ودون انتظار   يبغت الأولين والآخرينـا

وقدحاول اقبال أن يبدد من النفوس استسلامها الى الدنيا واخلادها الى نعيمها الزائل، ودعانا الى الحذر منها، والاحتياط فيها، فقدم هذا التشبيه الرائع في هذه الأبيات :

مَثـل الحيـاة كطائر مترنم   غنّى فأرقص حوله الأزهارا
ما كان أعذب لحنـه لـكنه   كالحلم حلّق في الفضاء وطارا

* * *

لا يعلم الانسان كيف أتى الى   دنيا المتاعب أو متى يترحـَّل
ما نحن في الأكوان غير حديقة   أزهارها عما قليـل تذبل
يا أيها الحرص ابك في الدنيا وما   دنياك كان بها لحيٍّ منزل

* * *

إن الحياة شرارة لم تبتسم   إلاّ لتجعلنا لهـا أحطابا
في عرس دنيانا مأتم للردى   تطوي شـيوخاً في البـلى وشبابا

* * *

والمرء لم يبرح أسيراً حائراً   ما بين سر الأمس أو لغز الغد
ان الحيـاة على الأنام بخيـلة   بدوامها. والعيش غير مخلد
الموت فيهـا هينٌ كنسيمها   والعيش أصعب من منال الفرقد

الله تعالى هو المنفرد بالبقاء، وجميع العالم لا بدَّ أن يفنى . وتفسير حلم الموت جرى في حياة الملوك والصعاليك والعظماء والسوقة .

أما خلود الانسان فهو من تقدير الله في الأزل، إلاّ أن هذا الهيكل الترابي الناقص لا بدَّ أن يمر عليـه الموت، ولا بدَّ أن يمرّ الإنسان من هـذا العالم المملوء بالحوادث التي لم تترك صحراء ولا مدينة، ولم ينج منها برٌّ ولا بحرُ . وفي ذلك يقول : —

الرعـد والبروق والزلازل   والقحط والآلام والنوازل
بنـات دنيـانا التي لا تلد   إلاّ خطوباً جمرها متقـد
في الـكوخ والقصر وفي الصحراء   والمدن المنيعـة الشماء
وفي رياض البلبـل الرنان   وفي تلال البـوم والغربان

يقتحم الموت بجيش القدر   حصون نخور(؟) وبطش القيصر
اذا رأيت الموج في البحر سكن   فالموت كامن لاغراق السفن
لا نغم العود ولا شكوى الحزين   ولا ابتسام البشر أو دمع الأنين
ولا امتشاق السيف بين الدارعين   ولا صدى التكبير بين الهاتفين
يعيد نبض القلب في الصدر الخراب   أو يرجع النفس إذا حان الذهاب

وتعدّ هذه الصور الشعرية التالية فخراً لكل لغة، ونغماً شجيّاً لكل لسان، فهو يوضح لنا ان الآلام لا بدّ منها لتمحيص الانسانية، وعلى نيرانها تنضج الأرواح القوية، ولا يمكن الوصول الى الأفراح إلاّ بعد الأحزان، ولا تنقش الحكمة على القلب إلاّ بحروف من دمه، والبلبل الذي لم يعرف قسوة الخريف لا يحسن استقبال الربيع، والآلام هي الطريق الى النور والدرجات العالية في معراج العظمة. والذي لم يعرف أنين المساء، والعاشق الذي حرم في هواه من حسرة جواه، وقاطف الزهر الذي حافظ على يده سليمة من الشوك، والذي قضى طول عمره في الرفاهية والترف لم يكدح في تحصيل علم، ولم يكد في اقتناء فن واحياء عبقرية، أولئك جميعاً محرومون الى الأبد من الاحاطة بكنوز أسرار الحياة، واستخلاص الذهب من مناجمه العميقة. يقدم لك هذه الأمثال الجميلة في هذه القصيدة : —

ان كانت الحياة خمراً صافياً   يغمرنا من رأسنا الى القدم
ففي الدموع للحياة جدولٌ   تصفو به النفس وتنبت الهمم
ان حباب خمرة الآمال لا   يرقص إلاّ فوق أمواج الألم
والله في حكمته علمنا   ان انشراح الصدر قبله ألم
عواصف الخريف في ليل السهاد   علمت البلبل ترجيع النغم
دم الأماني فيه للشعر مداد   وفي خطوب الدهر أسفار الحكم
نشيد هذا الكون يبدو   ناقصاً حتى يتم الدمع ألحان النشيد
ما أيقظ الشباب من سكر الهوى   إلاّ الأسى ينبه العقل الشريد
يا رب شاك صاغ في آلامه   جواهر الألحان من بحر الأنين
قد كان مثل العود في أحلامه   فأيقظته ضربات العازفين
آلامنا الى العلا أجنحة   نعلو بها فوق مطارات النسور

الروح سرٌّ والحياة ظلمة   وشعلة الآلام للأرواح نور
في خفقان القلب لحنٌ صامتٌ   لم تحكه على غصونها الطيور

* * *

ان الذي لم يدر أنات المساء   ولم تسامر عينه نجم السماء
ولم يحطم جام قلبه الأسى   ولم ينر ظلام ليله البكاء
والسادر اللاّعب طول عمره   لم يستمع الاّ الى عذب الغناء
والعاشق المحروم في غرامه   من لوعة الذكرى وحسرة الجفاء
ومجتني الزهر الذي لم تختضب   يداه في الشوك بحمرة الدماء
جميع هؤلاء مهما سعدوا   من نعم الدنيا بأمن ورخاء
فان أسرار الحياة تختفي   عنهم وهم عنها دواماً في اختفاء

وانه ليملكك العجب اذا رأيت الشعراء جميعاً في ناحية، واقبال وحده في ناحية أخرى، فهم يتغنون بالوصال، ويذمون الفراق، ويتبرَّمون بالأسفار ويحمدون الأقامة الهانئة، بينما هو يحب الرحلة والتجوال، ويطرب لدمدمة الرعود، وأزيز المراجل، وصخبة الأمواج. فيقول :

الوصل في الحب غال   وقيمة الهجر أغلى
الوصل حلوٌ ولكن   عواقب الهجر أحلى

* * *

في القرب موت الأماني   والعيش فيه فناء
والبعد فيه حياة   يذكي ضياها الرجاء

* * *

ان اتقاد الأماني   وحسن شدو الطيور
وضجة الخلق سعياً   في العالم المعمور

* * *

والسحب حين تراها   تسقي الربى واليباب
والموج في البحر يعلو   حتى يفوق الهضاب

* * *

وكل ما في البرايا   من روعة وجلال
لولا يد الهجر فيه   لم يزدهر بجمال

يحدثنا اقبال عن الظواهر الكونية بلغة ساحرة ، ويبين لنا مراراً أن الربيع لا تتفتح أزهاره، ولا تنضر أغصانه ، ولا يبدو كل ذلك جميلاً في الحدائق ، الا عند ما تتساقط كل الأوراق بعواصف الخريف ، وتبدو الطبيعة جافة صامتة نائمة حتى يوقظها ذلك الربيع بتغريد أطياره كما مرّ في العصور السابقة. فيقول لنا: إن ظواهر الحياة تعطينا درساً بليغاً . فليس الموت إلا غروباً لشمس الروح، ثم تسطع بعد ذلك في صبح الخلود الذي لا فناء بعده:

يزعم الجاهلون أن المنايا   مغربٌ فيه للحياة انقضاء
أفلم ينظروا الى الشمس يبدو   نورها بعد ما طواها المساء
تغرب النفس ثم يشرق صبح   فيه للنفس بالخلود انقضاء

عند ما أريد بناء مستشفى في الحجاز أراد اقبال أن يقدم إلينا من سحره بلسماً يهوّن صدمة الموت، ويوضح أن المرء بعد اجتياز تلك المرحلة يحيا حياة هانئة لا يحياها الخضر في عمره الطويل . ثم يهوّن احتمال الصدمة الأخيرة للحياة بعبارات سما فيها خياله وتصويره. فأنت ترى أن الشاعر ينظم القصيدة فإذا لم يجدها ملائمة لطبيعة روحه حذف منها أشياء وأثبت غيرها جديدة، وأعمل فيها التغيير والتبديل . كذلك الرسام والمهندس والكاتب وكل الفنانين الذين نشاهد مبتكراتهم أمام أعيننا، والقدرة تبدع في فن الإنسان وترق به تحسيناً وتجميلاً . وليس الموت إلا حالة يراد بها إصلاح النفس واعلاءها، وتتجلى لك هذه الحقيقة واضحة في هذه الأبيات : —

يا أساة الحجاز هلاّ علمتم   ان برء الحياة أرض الحجاز
ان سرّ الحياة يكمن في الموت   فيحكي حقيقة في مجاز

* * *

فرح المؤمنين في سكرة الموت   بقرب المهيمن المتعالي
هو أسمى من عيشة الخضر في الدنيا   طوال الدهور والأجيال

* * *

لِمَ جئتم للمؤمنين ببرء   ان إيمانهم يداوي الجريحا
والذي ذاق من يد الوحي كأساً   ليس يحتاج للدواء مسيحا

* * *

كل كون أبلته أيدي الليالي   أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعد حين ليبنى   منزلاً عالياً وقصراً مشيدا

[يتبع]

حقوق المرأة

غير مساواتها للرجل

المرأة خُلقت امرأةً والرجل خلق رجلاً. فليس هنا وجه للمفاضلة ولا وجه للمقابلة أو للمساواة ولا القول أن المرأة كالرجل أو أن الرجل كالمرأة. وإنما للمرأة حقوق تمتاز بها على الرجل أو تختلف عنه ولكنها حقوق لم تحصل عليها. ولو أُعطيت المرأة كل حقوقها لفاز الرجل بالقسم الأعظم من الراحة، والهناء، والسعادة، مما لم يفز به إلاّ قليلاً. ذلك لأن المرأة التي تعرف حقوقها هي المرأة التي تعرف واجباتها جيداً. والمرأة التي تحصل على جميع حقوقها تعرف أن تقوم بجميع واجباتها. ولكن من هو الذي يعطي المرأة حقوقها وأين هو؟ هل سمعت أن حقاً أعطي لصاحبه عفوآ من غير أن يجهد صاحبه في الحصول عليه، وقد قيل القول الحق: «الحق يؤخذ ولا يعطى». فلا تعجب أن ترى ثورة من السيدات لأجل حقوقهن. ومن يأخذ الحق إلاّ القوي سواء كان صاحبه أو مغتصبه...

مرّ وقت طويل والرجل والمرأة يشقيان بسبب الجهل العميق الذي أذن للقوة العضلية، والحرية الجسدية أن يفوّقا الرجل على المرأة. ونفس هذا التفوق خوّل الرجل أن يتعلم العلم ناقصاً فجعله يفهم حقه ولا يفهم حقها، ويفهم واجبها ولا يفهم واجبه. فاختلّ الميزان بينهما ورجح هو عليها. وقام في يقينه أن الرجل أفضل من المرأة، وأن المرأة ليست إلاّ متعة للرجل. ولذلك شاعت في العالم فكرة أن المرأة التي ولدت موسى، وعيسى، ومحمد، وجميع الأنبياء، والرُسل، والعظماء، والمعلمين، إنما هي أحط من الرجل، وإن كانت قد ولدت هؤلاء العظماء، وما أوجد هؤلاء العظماء إلاّ الظروف لا الأمهات: هذا ما هو في يقين الجمهور. ولكن لم يخطر في بال العوام حتى ولا الخواص، إنه لو كانت الأمهات مثقفات ثقافات تامة لكثر المصلحون. وكان الصالحون الجانب الأعظم من الناس، وكان الناس أكثر إذعاناً للمصلحين.

وأما الآن فلا يذعن لهم إلاّ القلة. لأن معظم الأمهات جاهلات، فيأتي معظم البنين جاهلين

والآن وقد وصلنا الى الوقت الذي صحا فيه الوجدان القومي، أو الوعي القومي كما يقولون فقد بدأت المرأة تتعلم ثم بدأت تعرف واجباتها كما تعرف حقوقها. فما الذي يمنع أن تتمتع بحقوقها كما صارت تقوم بواجباتها.

لا أنكر أن جانباً كبيراً منهن لم يزلن جاهلات ولذلك يجهلن واجباتهن ، كما يجهلن حقوقهن . ولكن هذا لا يسوغ للرجل أن يهضم المرأة حقوقها . ولا سيما لأنه لم ينل القسط الحالي من الثقافة الذي يخوله حق الإستقلال و الاستئناس بمعونة المرأة وأن يكون له كل الحق بالتمتع بكل حقوقه وباحتقار حقوقها . واذا كان الوجدان النسوي لا يزال متأخراً في فهم حقوقه الطبيعية وواجباته فلأنه لم يتثقف الثقافة اللازمة . ولذلك لا يجوز أن تبقى النساء جاهلات لكيلا تبقى المرأة محرومة هذا الحق. ولكيلا يحصل تقصير في تثقيف الناشئة الجديدة . يجب أن تعطى السيدات كل حقوقهن الثقافية لكي ينشئن النشء الحديث المتأهب لتولي شؤون الجيل الجديد . فتكون الأمة في وضع من الحرية والسعادة أفضل . فإن كانت تنشئة الجيل الجديد تلقى على الرجال فقط تبقى ناقصة . فتربية الجيل واجب على المرأة أولاً . وواجب الرجل معلوم ، هو غير ما يجب على المرأة . وقد عرف الأميركان والانكليز هذه الحقيقة فجعلوا التعليم الأولي في أيدي المعلمات لا المعلمين .

والآن وقد فهم عقلاء الرجال عندنا أن المرأة ليست دون الرجال في الأهمية وان لها حقوقاً لا تقل قيمة عن حقوق الرجل، قاموا ينصرونها في المطالبة بحقها السياسي أيضاً . ولا ينكر عليها هذا الحق إلا المتقهقرون الرجعيون الجهلة الضعفاء، فهم يجهلون أن مساواة المرأة بالرجل في الحق السياسي تزيد رفاهية الرجل وسعادته اذا كانوا يستبصرون . وما من شخص رجلاً كان أو امرأة اذا كان مثقفاً ثقافة عالية ألاّ يعرف أن الحق والواجب صنوان متلازمان متعاونان، فمن يعرف الواجب يعرف الحق . ومن يعرف كيف يأخذ يعرف كيف يعطي . إذن لماذا تخاف أيها الرجل من امتلاك المرأة حق مساواتها السياسية بك ؟ ان الرجل المثقف القوي لا يخاف هذا الحق ، ولا يخافه إلا الضعيف .

الغريب العجيب الذي لا نستطيع فهمه وتعليله ان سيدة مثقفة ثقافة عالية يحرمها الدستور ان تعطي صوتها في الانتخاب ويمنح خادمها الجاهل الأمي أن يعطى صوته . ان هذا من سخرية الأنظمة الاجتماعية التي اذا لم يضحك علينا فيها الامم الراقية فسيضحك علينا بها أطفالنا متى صاروا رجالاً .

نعم ان عمل المرأة في بيتها، والرجل ينحصر عمله في معمله أو تجارته أو أي مرفق يرتزق منه . ولكن اذا كان عمل الرجل لا يمنعه أن ينتخب وان يحضر البرلمان فعمل المرأة لا يمنعها أن تنتخب وان تحضر البرلمان أيضاً. وهو أكثر انشغالاً منها .

أليس أفضل للرجل أن يرى زوجته تساعده في تفكيره ورأيه وتدبيره من أن تطالبه بالفستان والحلي والزيارات التي لا طائل تحتها إلا القمار والمزاح والهزار .

ولطالما كتبت عن المرأة وحقوقها في مجلتي مجلة السيدات والرجال أيضاً ، وكنا في ذلك الحين نشكو من تقصير الحكومة في تعليم البنات وتثقيفهنَّ . وأما الآن فقد وفر تعليم المرأة وتخرَّج كثير من الفتيات وأصبح عندنا عدد عظيم من المثقفات ، فآن لنا أن نلتفت الى حق المرأة في التصويت للنواب والشيوخ . وقد يقال ان الجاهلات كثيرات جدًّا والمثقفات بالنسبة لهنَّ معدودات . وهذا يقال عن الرجال أيضاً فان الجاهلين منهم أكثر من أن يعدوا. فاذا كان الجهل مانعاً من التصوت فان ٩٠ بالمئة من الرجال لا يحق لهم التصويت. رحم الله القائد الزعيم حسني الزعيم الذي كانت له فضيلة منح المرأة المثقفة في سوريا حق التصويت أسوة بنساء العالم الحائزات هذا الحق . ويقال ان في سوريا نحو ٢٠٠٠٠ سيدة يلقنَ للتصويت . وأظن أن في القطر المصري أضعاف أضعاف هذا العدد . فمن الغبن أن يحرمنَ هذا الحق . فنرجو أن ترهف أقلام الكتاب للكتابة بهذا الموضوع وأن ترهف ألسنة الشيوخ والنواب لمناقشة هذا الموضوع ، لأنه كما قلنا لا يخاف من مطالبة السيدات بهذا الحق الا الضعفاء . فاذا كان عند ذوي الشأن جرأة فلا يخافون من هذا الحق للنساء .

لما كان كسرى ينفذ حكم الاعدام بحكيمه ووزيره بزرجمهر رأى بين الجمهور فتاة سافرة . فاستغرب، لأن عهده أن النساء يكنَّ بين الرجال مقنعات ، فأوعز الى أحد رجاله أن يذهب الى هذه الفتاة ويسألها : لماذا تظهر بين الرجال سافرة ؟ . فلما سألها هذا السؤال أجابت : قل لسيدك : لو كان في القوم رجال لما سفرت . . . فهل انقلبت الآية وصار الرجال ضعفاء لا يسلمون بحق السيدات خوفاً منهنَّ . ان القوي لا يخاف ، لماذا يأبى علينا الرجال حقوقنا . فاذا كانوا يعتقدون اننا قوينا فيجب أن يسروا وان يستعينوا بنا لا أن يظلوا يحسبوننا عبئاً عليهم . وإذا كانوا يعتقدون بصحة القول : الجنة تحت أقدام الأمهات، فيجب أن يعلموا أيضاً ان الجحيم تحت أقدامهنَّ أيضاً إذا كنَّ جاهلات . فعلى رجال الدولة وأهل القول في الأمة أن يجعلوا الجنة تحت أقدام الأمهات ، وأن يولوا المرأة وظيفة تربية الناشئة أولاً . وهذا يستوجب أن يكون لها حصة وافية في تدبير شؤون الدولة

ان الأمهات أيها السادة مربيات العظماء . فاعلموا هذه الحقيقة ، ترى كم عظيم عندنا يقول ما قاله جورج وشنطون محرر أميركا حين كانوا يكرمونه : «وجهوا تكريمكم لأمي . فهي التي صنعتني» . فاذا جعلتم المرأة في هذه المنزلة تكونون قد أعطيتموها المساواة فعلا

روز أنطون حداد

جاليليو جاليلي

العلم يُعتقل

في أول أكتوبر سنة ١٦٣٢ استدعى ديوان التفتيش جاليليو جاليلي من مدينة بيزا الى الفاتيكان في رومه. وقبل أن يصل الى القصر الباباوي حُجِز ولكنه عومل بلطف. وبعد بضعة أيام دعي الى ديوان التفتيش أمام محكمة مؤلفة من سبعة كرادلة. وكانوا يستجوبونه بتدقيق كلي.

سأله رئيس المحكمة : أما وعدت قداسة سيدنا البابا أن تُقلع بتاتاً عن الدعاية لفلسفتك الباطلة وتلتزم مباحثك العلمية.

فأجاب جاليليو — بلى : وعدت قداسته ألاّ أتعرض للاهوت ولا لتفسير الكتاب المقدس. ولكني لم أعد قداسته أني لا أبث في الشعب معلوماتي العامة.

— وإذا كانت المعلومات التي تبثها في الشعب تناقض اللاهوت ونصوص الكتاب المقدس أفلا تكون قد نكثت بعهدك لقداسته ؟

— مثل ماذا ؟ ألم تقل ان الشمس ثابتة ، والأرض تدور من حولها ؟ أليس كتابك الذي نشرته في العالم المسيحي تصريحاً واضحاً بهذا المعنى ؟ وقد انتشر الكفر بين المسيحيين بناء على كتابك.

— أقوالي في كتابي مبنية على أدلة و براهين عقلية، واختبارات حسية ، وهي معروضة لكل من يستطيع أن يفندها.

— نحن نفندها بكلمة واحدة. ألم يرد في التوراة أن يشوع بن نون أوقف الشمس نصف ساعة الى ان تنتهي المعركة على نور؟ ولم يقل انه أوقف الأرض عن الدوران حول الشمس.

— هذا قول التوراة. ولكن التوراة كتبت في زمن لم يكن فيه علم. لو كان علم اليوم موجوداً في زمن يشوع لقال كاتب السفر «عطل الله بشفاعة يشوع دوران الأرض حول الشمس نصف ساعة الى أن انتهت المعركة». فالذي كتب السفر كتبه حسب عقلية أهل ذلك الزمان، فلو قال لهم انه أوقف الأرض ما صدقوه ، ولقالوا «انه مخرّف. ألا يرى بعينيه أن الشمس سائرة في قبة الفلك والأرض ثابتة في مركزها؟ أم هو أعمى ؟» فلكي يتفادى

هذا الاعتراض قال انه أوقف الشمس، حتى يصدقوه .

— ونحن نقول لك : هل أنت أعمى لا ترى الشمس سائرة والأرض ثابتة؟

— كلاّ لست أعمى . ولكن ألا تفهمون أنتم ما تقرأون ؟ لماذا لا تقرأون براهيني في كتابي الذي وفّقت به بين قول الكتاب وقولي وتتفهّمونها جيداً ؟ فقد فسرت نظريتي تفسيراً علميًّا لا غبار عليه .

أتريد أن نصدق وحي علمك: ونكذب وحي الله في كتابه المقدس ؟

— معاذ الله : اني استغرب أن اليهود الذين هم أصحاب التوراة لم يعترضوا عليّ ولا دافعوا عن توراتهم . وأنتم .....

فقاطعه المستجوب غاضباً : اتنتظر أن يدافع اليهود عن التوراة وفيها نبوءات الأنبياء عن يسوع الناصري المسيح . فاذا تمسكوا بها فلا يستطيعون أن ينكروا مجيء المسيح . أما نحن فلسنا ندافع عن التوراة لأنها لا تحتاج الى من يدافع عنها وهي وحيٌ من الله . والله صادق فيها ، أوحى وأعلن . والله يرينا الشمس متنقلة في السماء بين الأبراج فضلاً عن إنها دائرة حول الأرض .

— هكذا تتراءى لكم لأنكم على الأرض . فلو كنتم في المريخ مثلاً لرأيتم الأرض تنتقل بين أبراجها حول الشمس ولا ترونها ثابتة كما تقولون . والمسألة تتوقف على مكان الرصد لا على جرم المرصود فقط .

هذا ما تزعمه أنت بحسب علمك الخاطىء وسفسطتك الفاسدة . وأما نحن فدستورنا هو هذا الكتاب المقدس الذي أوحى به الله . وديواننا يقضي عليك أن تكتب منشوراً تنكر فيه عقيدتك وتجحد جميع أقوالك وتتعهد انك تلزم الصواب في كل ما تقول :

— اني ملتزم الصواب . والصواب هو ما أقول وأكتب لأنه مبني على مشاهدات محسوسة وبراهين معقولة .

— يعني أنك تستمر على غيك، وتصر على كفرك، فإذاً أعلم أن التعذيب حتى الموت هو عقابك . فاختر لنفسك ما يحلو .

— فبماذا تخيرونني ؟

— تجحد جميع مزاعمك الباطلة .

ففكر وقال : لا أستطيع أن أجحد نفسي وأنا أعلم إني على صواب . والله نفسه تعالى الذي خلق هذه الخليقة على هذا الشكل وجعل الشمس ثابتة والارض تدور من حولها يؤيد كتابي .

— تبًّا لك من وقح مكابر أتظن أن الله يؤيد قولك ويجحد كتابه المقدس .

— ليس الكتاب المقدس كتاب الله ، بل هو كتاب اليهود ، وهم دوّنوا فيه ما شاءت لهم أهواؤهم . هل نصدق قول التوراة ان الله خصهم بأرض كنعان التي سموها أرض الميعاد . ونحن نعلم أن الله للجميع ولم يخص قطراً بأمة من الأمم . وإلاّ فليخرج غير اليهود منها لانها ليست لهم وليعد اليها اليهود الذين لم يقيموا فيها سوى بضع مئين من السنين ، وقد هجروها أخيراً إلاّ نفر قليل منهم .

— إذاً لا تعتقد أن التوراة كتاب الله .

— لا

— أوَلا تعتقد أنها وحيٌ منه تعالى ؟

— أعتقد . وأنا أعتقد أن اليهود دسّوا فيها أموراً كثيرة لمصلحتهم . ومنها حكاية يشوع عن إيقاف الشمس .

— ليس لنا أن نجادلك في موضوع حكاية يشوع . ونحن نرى أنك مصرٌّ على عقيدتك إن الأرض تدور لا الشمس

— نعم .

— إذاً . الحكم يصدر من ديواننا بالتعذيب لك، ولسوف نقدمه لقداسة البابا لكي يصادق عليه . وسينفذ إذا لم ترجع بقولك إن الشمس ثابتة وإن الأرض تدور من حولها

ثم أخرجوه مخفوراً وهو يخبط الأرض برجله قائلاً ، بلى تدور . وتدور . وتدور .

فحمي غضب الكرادلة وأسرعوا بعرض مضبطة الجلسة على قداسة البابا توّاً .

وبقي جاليليو تحت الحراسة برهةً وكان أصدقاؤه ، ومنهم الدوق توسكانا الذي كان صديقه الحميم، يتشفعون به . ولكن ديوان التفتيش لم يقبل شفاعة أحد حتى ولا شفاعة البابا أوربان الذي كان يود جاليليو . بل أوغروا صدر هذا البابا عليه . وكان قد ارتقى الى عرش البابوية منذ ذلك الحين فتركه البابا بين أيديهم كما فعل بيلاطوس حين ترك المسيح بين أيدي اليهود.

وكان حكم الديوان عليه أن ألبسه المسوح وأركعه أمام حشد من الناس وأمره أن يصرح أمامهم ما لقنه إياه وهو :

« أنا جاليليو جاليلي أسجد لدى نيافتكم وأعاهدكم على الكتاب المقدس أني أرفض هرطقة دوران الأرض وألعنها » ثم سجنوه عند أحدهم وأمروه أن يتلو ٧ مزامير التوبة مرة كل أسبوع مدة ٣ سنوات . وحرّموا عليه أن يكتب شيئاً .

وقد رأف به كرادلة الفاتيكان خلافاً لشيوخ أثينا الذين لم يرأفوا ببقراط زميله .

هكذا كان جزاء نوابغ الفلسفة والعلم في القديم الى عهد غير بعيد . كلما تقدم العلم كشع من أمامه ظلماء الجهل والتعصب الأعمى .

* * *

وُلد جاليليو جاليلي في بيزا في ١٥ فبراير سنة ١٥٦٤ ، ومنذ حداثته كان مولعاً بعمل الألعاب . وكان أبوه يرغب في أن يعلمه فن الطب . فبعث به الى مدرسة بيزا فكان مبرزاً على أقرانه على الرغم من أنه لم يحب طب ذلك الزمان ، ولا فلسفة ارسطو ولا شيئاً من العلوم التي لا اختبار عملي فيها . ولكنه مال الى علم الرياضيات على الرغم من إرادة أبيه فنجح فيه وفي الفلك .

وكان من ثمار نبوغه انه اكتشف من جراء ترجُّح القنديل في الكنيسة الرقاص الذي يقاس به الوقت ، واخترع الساعة الفلكية التي أزاحت المزولة وحلّت محلها .

ودرس هندسة اقليدس . وعلم ارخميدس في المائيات والميكانيكيات وسائر الطبيعيات . واكتشف الثقل النوعي . واخترع الترمومتر الزئبقي . وفي تلك الأيام ظهر نجم جديد في السماء ، فبرهن أنه خارج عن فلك النظام الشمسي . ثم ما لبث أن اخترع التلسكوب الذي كان يقرّب المرئيات نحو ٣٠ مرة ، فاكتشف به جبال القمر ووهاده ، ورأى نطاق المجرة مجموعة نجوم متزاحمة ، وكشف به أربعة أقمار للمشتري تدور حوله . وكان أول من كشف حلقات زحل . وهو أول من قال ان القمر لا يرينا إلا وجهاً واحداً فيه . وهو الذي ينعكس عنه كله نور الشمس في ١٤ من الشهر القمري ، وإنه يكون في حين المحاق قريباً للشمس وفي بدره مقابلاً لها ، ونحن بينهما . وطار صيته بعلمه وفلسفته في كل أوربا ولذلك هاج عليه رجال الدين والمؤمنون لأنهم رأوا أن علمه ينقض بعض نصوص الكتاب المقدس وكان ذلك سبباً لمحاكمته . وعلى الرغم من أنه كتب كتاباً يبرهن فيه أن أقواله لا تناقض الكتاب أبوا إلاّ أن يستدعوه الى ديوان التفتيش ، حيث حوكم وحكم عليه كما تقدم الكلام . وقاسى من المحاكمة والحكم حتى أصيب بخفقان في قلبه ، فمات في ٩ يناير سنة ١٦٤٢ ودفن في فلورنسا يأسف عليه أنصاره ويسخط عليه الكافرون بالعلم والحقيقة .

والآن ماذا يقول أهل ديوان التفتيش بعد إن ثبت ما دانوه فيه . ذكره بقي ، واسمه مخلد ، وديوان التفتيش انصرم وزال . وهكذا الزمان ، دول تدول ودول تقوم . فسبحان من لا يزول .

باب الزراعة والاقتصاد

انتفاع الزراعة بالذرة

أحدث المخترعات الزراعية للانتفاع بالذرات المرشدة ، أي النمامة على مقرها ، لتحسين حاصلات البساتين وتضخيم أحجامها وخفض أسعارها

(الذرات عامة)

اعتاد علماء الطبيعة ، حسبان العناصر الطبيعية ٩٢ عنصراً . أوضحوها في قائمة يسمونها « جدول العناصر العصرية » وفي رأسها يضعون أخف العناصر وزناً أي الهيدروچين . ويضعون في أسفلها أثقل العناصر أي اليورانيوم . فالعناصر إذاً تُرتب في تلك القائمة بحسب أثقالها .

فاليورانيوم الذي هو العنصر الثاني والتسعون في التنسيق ، أثقل من الهيدروجين ٢٣٨ مرة .

وهذا ما يجعل العلماء يسمونه يورانيوم عيار ٢٣٨ .

ومنذ عدة أعوام تكشف للعلماء أن هاتيك العناصر مختلفة الأنواع . وليس كلٌّ منها ذا نوع واحد . فالهيدروجين مثلاً ثلاثة أنواع على الأقل ، والكلور نوعان ، والكربون نوع واحد . ولا يستطيع الكيماوي تمييز أنواع الهيدروچين أو الكلور أو الكربون ، الواحد من الآخر ، ولكن العالم الطبيعي في وسعه معرفة كل نوع على حدته . وذلك بوزن ذراته . ومن ثمة نتجت كلمة إزوتوب Is tope ومعناها — المكان نفسه ، أي الترتيب الذي يشغله العنصر ذاته في قائمة الترتيب العنصري . وترجمة هذا اللفظ : — صنو — أو توأم أو نظير .

ولليورانيوم ٣ توائم . وجميعها تشغل المكان الثاني والتسعين في قائمة الترتيب المشار إليها . وأكثرها شيوعاً النوع الذي عياره ٢٣٨ أي الذي يعادل وزن الهيدروچين ٢٣٨ مرة .

بيد أن خام اليورانيوم الذي يحتوي على ذلك الصنف المشهور ٢٣٨ ، يشمل أيضاً غيره من أنواع اليورانيوم . منها النوع المعروف بعيار ٢٣٥ لأنه يساوي ثقل الهيدروجين ٢٣٥ مرة . وهو الذي ينفجر عندما يحتشد وزن منه يتفاوت بين ٢ر٢ رطل و ٢٢٠ رطلاً انكليزياً .

ومن المواد الأخرى التي تعبأ بها القنابل « البلوتونيوم » وهذا لا يوجد في الطبيعة .

وإنما يتولد عند ما تصدم النيوترونات السريعة ، يورانيوم عيار ٢٣٨ . (والآن صاروا يصنعونه صنعاً من الأورانيوم) . (والى الآن لا يصنع عنصر آخر غيره صنعاً).

وحينما تؤثر تلك النيوترونات في ذرّة من ذرّات هـذا اليورانيوم ، تمتص الذرة نيوتروناً فيتكوَّن منها حينئذٍ عنصر هو النبتونيوم . (وهذا غير ثابت كالبلوتونيوم) ويتهشم هـذا العنصر من تلقاء ذاته فيتولد منه بلوتونيوم ، هو الذي حُشيت به القنبلة الذرية التي دمَّرت مدينتا هيروشيما ونجازاكي اليابانية.

وفي أواخر سـنة ١٩٤٦ جاءت الأنباء من مدينة بركلي في كليفورنيا بأن الأستاذ جلين ت . سيبورج قد اكتشف صنواً للبلتونيوم أثقـل من الهيدروجين ٢٣٧ مرة وهذا ينتج عن طريقـة يسمونها « الأنشطار التسلسلي » أي إفلات النيوترونات من ذرة لـكي تندمج في أخرى .

ثم أعلن الأستاذ نفســه أنه اكتشف ثلاثة أنواع أخرى من النبتونيوم هي عيارات ٢٣٤و٢٣٥و٢٣٦ وكذلك صنفاً آخر جَديداً هو عيار ٢٤١ : وهذه العناصر الجديدة نافعة لعلاج السرطان . وتستعمل مرشدات للتعمق في استكشاف الوظائف الفسيولوجية. فأضيف الى قائمة العناصر ، عنصران هما النبتونيوم والبلوتونيوم أي ٩٣ ، و٩٤ وتلا عنصران آخران جديدان هما ٩٥ و٩٦ (١) والعناصر الجديدة المسماة بالمرشدات أي النمامة التي تنم على مقرها هي المقصودة بالذات من هذا البحث وسنتكلم فيما يلي على منافعها في ميدان الزراعة المصرية :

(الذرات المنمة لترقية الحاصلات الزراعية)

يعتقد علماء الزراعة في أمريكا أن حقن شجر البساتين بالمواد المخصبة ، بوساطة المحاقن على غرار حقن البشر بالفيتامينات ، بالإبر المألوفة ، يفضي الى توفير أطنان لا تحصى من السماد الذي نسمـد به عادةً . وهذا فضلاً عن زيادة محصولاتها وتحسين أنواعها.

ويُعول الباحثون ، في اعتقادهم هـذا ، على الأدلة الثابتة المشجعة التي أسفرت عنها التجارب المدهشة الخاصة باستخدام الذرّات المشمة النمّـامة التي تنم على مقرّها . وذلك لأول مرة في تاريخ الزراعة الأمريكية ، قصـد دراسة ما يحدث في بواطن الشجر المثمر طبقاً لما يتبعه الأطباء حالياً من التوسُّـل بمنتجات الطاقة الذرية في مباحثهم الطبية .

وقد قام الدكتور هـ . إ . همّـار أحد علماء وزارة الزراعة الأمريكيـة بتجارب أولية

---

(١) الكاتب — وقد سميا أولهما أمريكيوم وثانيهما كوريوم، ثم جاء حديثاً في الأنباء البرقية العا
نهم اكتشفوا العنصر السابع والتسعين ولكنهم لم يسموه بعد (عوض) .

في حقن الأشجار بمادة « الفصفور المشع » التي حصل عليها من فرن الطاقة الذرية في أوك ريدج بولاية تنيسي ، فجعل هاتيك الأشجار تشع إشعاعاً ذاتياً من كل جزء من أجزائها . وكان الغرض من التجارب المشار إليها ، مقابلة نتائجها التي ظهرت للباحثين ، بعضها ببعض ، في إخصاب شجر البيكان (١) بالطرق العادية ، وغير العادية ، وذلك في ضواحي ألباني باقليم جورجيا .

ويقول العلماء الذين باشروا هذه التجربة إنهم آثروا فيها « الفصفور » على غيره من العناصر المعروفة . لأنه كثير الاستعمال في الأسمدة الفوسفاتية ، ولكون نصف أجله الاشعاعي ، يعادل ١٤٫٣ يوماً . وهي فترة كافية لاتمام التجارب ، وأقصر مما يحدث الضرر الصحي للمجربين ، إذ تزول هذه الخاصيّة المشعة عاجلاً ، فيستغنى بزوالها عن اتخاذ الاحتياطات الصحية الواقية من مضارها . واستعمل الدكتور همَّار لهذا الغرض ، مركباً كيمائياً مؤلفاً من سماد مسحوق محتوٍ على فصفور مشع عيار ٣٢ . وعلى هذا النمط تلقت شجرتان من أشجار البيكان « الجوز الأمريكي » كل منهما عشرة أرطال من ذلك المركب الجاف مخلوطاً بالسماد ، إذ وُضع حول جذرها . ثم استعملت محقنة (مما يستعمل للحقن تحت الجلد البشري) لحقن كل من تينك الشجرتين بمحلول من السماد عينه ، وذلك في ثقوب ثقبت في جذع الشجرة وفروعها وجذرها . ثم أغلق الدكتور همَّار تلك الثقوب بسدادات من الفلين . وجرَّب أيضاً رش أوراق الشجرة بالمزيج نفسه . فأتيح له في كل حالة ، بوساطة الأشعة النمامة المشبَّع بها السماد ، تتبع مجراه في الشجرة ومعرفة مبلغ تقدمه في كل جزء من أجزائها .

وكانت أبرز المنافع التي جناها الدكتور همَّار من هذه التجربة ، وثوقه بنجاح التسميد حقناً . إذ يُكتفى حينئذٍ بتسميد الشجرة بسماد مؤلف من $\frac{١}{٤}$ من الفصفور ، بوضع حول جذرها . وأكثر من ربع الفصفور الذي تحقن به الشجرة حقناً مباشراً تمتصه في مدة لا تزيد على أسبوع ، فيصل عاجلا الى كل جزء من أجزائها .

وفي هذا الصدد يقول الدكتور همَّار « ومن المعقول أن نعتقد كون هذه الطريقة

---

(١) البيكان ، ضرب من النقل (المكسرات) كالبندق واللوز . وقد شاهدناه بين معروضات معرضنا الزراعي الصناعي السادس عشر . وذلك في القسم الخاص بالقناطر الخيرية بسراي الزراعة كما أبصرنا نموذجاً منه في محصولات إنشاص في الجناح الخاص بمزارع الخاصة الملكية . وهو ثمر شجر ضخم يشبه الجوز . وأصله من نباتات الاقاليم الشمالية والجنوبية بالولايات المتحدة الامريكية . وثمره زيتوني الشكل ، رقيق القشرة وأوراق شجره ضخمة ريشية الشكل .

ستوفر السماد للزراع فضلاً عن تمكينهم من السيطرة على نمو الشجر والهيمنة على وقايته من الآفات الزراعية ، هيمنة لم يحلم بها أي إنسان كان في زمن من الأزمان ، كما تكفل لهم الحصول على ثمر ونقل أجزل مما اعتادوا وأجود كثيراً مما ألفوا في حياتهم .

(صبغ الالوان لتلوين خشبها)

وبعد كتابة ما تقدم قرأنا النبأ الآتي ، في أحد المراجع العلمية الانكليزية الخاصة بالزراعة ، فآثرنا نقله الى قرائنا فيما يلي إتماماً للفائدة : —

أسفرت التجارب التي جربت في ولاية ماين بأمريكا لصبغ عصارة الشجر ، قصد تلوين خشبه بالألوان النضيرة المرغوب فيها ، عن النجاح . وتباشر هذه العملية إحدى النقابات الكيمياوية بالطريقة الآتي بيانها : —

يثقب جذع الشجرة عدة ثقوب على ارتفاع أربع أقدام من سطح الأرض . وتثقب أيضاً ثلاثة أو أربعة جذور من جذورها الكبيرة ثقوباً أخرى . ثم يؤتى بفنطاس مملوء بالصبغة المرغوبة ، ويعلق على ارتفاع ١٢ قدماً من سطح الأرض وذلك بين أغصان الشجرة ، حيث يكون بمنزلة مغذٍ موازٍ لمركز الجاذبية لتوزيع الصبغة في جذور الشجرة وجذعها . وذلك بأنابيب دقيقة من الصمغ المرن (كاوتشوك) تمتد من الفنطاس الى الثقوب جميعها .

وأصلح الأزمان للقيام بهذا العمل ، أوائل فصل الربيع ، إذ يمارس مزج عصارات الشجر ، بالصبغة يومياً حتى تتخلل الصبغة جميع أجزائه . ومع أن نفقات الصبغ فادحة ، إذ تبلغ ثمن الصبغة التي تحتاج اليها شجرة واحدة متوسطة الحجم ، نحو ستة جنيهات عدا ما يقتضيه تركيب الفنطاس ، من العناء ، غير أن العلماء سيتوصلون الى اختراع وسائل أقل نفقة مما تقدم ذكره ، ليتاح لهم الحصول على خشب كثير ملوّن بألوان مختلفة لصنع الأثاثات المنزلية المختلفة الأنواع .

اكتشاف اليورانيوم في مصر

[حاشية] — وجاء في الأنباء البرقية من لندن في ١١ مايو سنة ١٩٤٩ ما يأتي : — أعلن مصدر مسئول في وزارة التموين البريطانية أن الخبراء الانكليز وفقوا لاكتشاف مقادير كبيرة من رواسب اليورانيوم في كندا ومصر والسويد وفرنسا والكونغو البلجيكي . ويعد الكونغو أغنى منطقة باليورانيوم في العالم .

عوض جندي

مسائل وأجوبتها

ثدي الرجل

حضرة محرّر المقتطف

كان في المقتطف لعهد المرحوم الدكتور صرّوف باب خاص بالأسئلة والأجوبة، فلماذا أقفلتموه؟ أنا مشترك في المقتطف من ذلك العهد الى اليوم والغد . ولا أزال أرى المقتطف ناقصاً هذا الباب. أفلا تستحسنون أن تفتحوه ثانياً عسى أن يحبذه القراء مثلي. فاذا شئتم فأرجو أن تجاوبوني على هذا السؤال:

لماذا للإنسان الرجل ثديان؟ فهل كان الرجل في عصر الأمومة يُرضع الأطفال. فقد قرأت في ما مضى ان المرأة كانت في بعض القبائل البدائية تقوم بالأشغال الشاقة كالفلاحة والزراعة والصناعة والصيد. وكان الرجل يلازم البيت أو الخيمة لكي يعنى بالأطفال ويربيهم كما تفعل المرأة اليوم . فهل كان الرجل يرضع الأطفال في ذلك الزمن القديم حتى نما في صدره الثديان على مدى احتكاك فم الطفل في صدره — أفيدونا أفادكم الله.

بيروت راغب الجسر

ج — حقاً كان المقتطف يمتاز في عهد المغفور له الدكتور صرّوف بباب الاسئلة والأجوبة، وكانت للدكتور أجوبة عجيبة في بعض الأحيان . كنا نستغرب كيف خطرت له أو كيف اهتدى إليها . وهي لا شك تقتضي علماً فياضاً واطلاعاً واسعاً . ولذلك لا يطمع محرر المقتطف اليوم أن يسد مسدّ محرره الأول في هذا الباب . ولكنه لا يخيّب أمل حضرة هذا السائل في أن يعاد فتح الباب ثانياً . فننشر كل سؤال وجيه يرد الينا ونجاوب عليه ما أمكننا الجواب . وما لا نستطيع الاجابة عليه ندعه لعلم القراء ، فلعلّ فيهم من هو أوسع علماً أو من هو أكثر خبرة في الموضوع فيقضي لبانة السائل فننشر جوابه بامتنان . بل ننشر كل جواب يرد الينا حتى ولو نشرنا نحن جوابنا . ولذلك يكون المقتطف دار ندوة يتباحث فيه مع قرائه في المباحث التي تهم القراء عموماً .

أما سؤالكم عن ثدي الرجل فيخطر لكثيرين ويحير كثيرين، ولم نصادف تفسيراً له . فلعلّ قارئاً قد قرأ تفسيراً فيفيدنا .

لم يوجد الثدي في صدر الرجل عبثاً . فلا بدّ أنه كان في شبه الانسان الذي تسلسل منه الانسان قديماً . وكان الرجل يشارك الأنثى في الارضاع . ولا أعرف أن بين أشباه الانسان اليوم كالشمبانزي والجورلا أو الأوران أوتان ذكورها ذوات أثداء . وكنا نسمع أحياناً ان بعض الرجال كانت أثداؤهم تدر لبناً فلا نصدق لأننا لم نرَ . ولكن لماذا لا نصدق ووظيفة الثدي الادرار ؟ . ويقال والقول أكيد ان الخفاش (الوطواط) الذكر يشترك مع الأنثى في ارضاع الصغار . وربما كانت فصائل أخرى

من نوعه ترضع أيضاً . ويظن أن أسلاف الحيوانات اللبونة كانت ذكورها ترضع . وفي المملكة الحيوانية كثير من الأنواع عجيبة في حياتها شذت فيها عن المألوف، فهناك فصيلة يقال لها Monatremat تبيض وترضع، ولله في خلقه شؤون .

—:—

كيف ينتهي العالم

نحن الآدميون الآن في موقف خطير ، لسنا مطمئنين لمستقبلنا حتى ولا لحاضرنا . ففيما نحن مهددون بالقنبلة الذرية فإذا بنا مهددون بالقنبلة الهيدروجينية . والمشاكل السياسية كالنهر الجاري لا نضوب له . قلاقل تحرمنا النوم . وعلى الرغم من أن الدنيا بألف خير ، والأرض تدر الرزق بسهولة بسبب أن الآلات الميكانيكية سهلت الإنتاج ووفرته، نرى أننا نخاف الجوع . وبالاختصار البشر الآن في مخاوف لا يدرون كيف يتداركونها . فما رأيكم في مستقبل العالم القريب ! هل يعقل هؤلاء الناس ويثوبون الى رشدهم ويعيشون بسلام . أم أن يوم البعث قرب ، والناس مقبلون على يوم الدينونة ، والجنس البشري سائر الى الفناء ؟ وكيف يكون هذا الفناء .

طنطا يوسف المعراوي

ج — سل تشرتشل، واتلي، وستالين، وترومان وسائر أساطين السياسة فهل يستطيعون جواباً؟ لا برغسون، ولا اينشطين ولا ارثر كيث ، ولا جوليان هكسلي ، ولا موباسان، ولا برناردشو ، ولا مئات من أمثال هؤلاء الأقطاب يمكنهم أن يتنبأوا عما تشرق عليه الشمس غداً . العالم كله يتغير من يوم الى يوم، بل من ساعةٍ الى ساعة — يتغيّر بسرعة هندسية، والحوادث تتسابق وتتزاحم ويدافع بعضها بعضاً ، فأقربها الى الساعة تدفع من جنبها أبطأها الى الوراء قرناً — من يدري ماذا بعد القنبلة الهيدروجينية. وماذا بعد الطائرة السابقة للصوت . وماذا بعد الرادار الذي يُري الهدف ، ويحرك المستهدف إليه، وماذا بعد البترول الناضب — كل يوم يظهر لنا عامل من عوامل الخير والشر جديد. فإذا الذي كان مباشراً أصبح قديماً — ٩٩ بالمئة من المخترعات ظهرت في زماننا ، ولا يزال « الحبل على الجرّار » . أجل لا يمكننا أن نعلم ماذا يأتينا به الغد . وإنما يمكننا أن نعلم : —

إن ناس هذا الزمان على ما في قلوبهم من شرور ورداءة لا يستعملون القنبلة الذرية ،ولا الهيدروجينية إلاّ إذا جُنّوا لأن استعمالها كارثة للضارب والمضروب على السواء ، ومصيرهما الفناء معاً .

فإذا كان البشر يتورّعون هذا الشر العظيم فيخافون أن تأتي الكارثة عامة لا تبقي ولا تذر . ولولا هذا الخوف لاستعملوا السلاح الوبائي بكأس واحدة من مزرعة الكوليرا والتيفوئيد واخواتهما تلوث مياه الأنهر والينابيع ويقضي على جميع

الشاربين . ولكن البشر على رداوتهم لم يحاربوا بالسلاح البكتيريولوجي مع أنهم كانوا يعرفونه — تورّعوا — خافوا .

قد لا يخاف أشرار الغد الله، ويستعملون الميكروب والذرة منتحرين . . . ليس من يؤكد لنا أنهم لا يفعلون . . . وحينئذٍ ينقرض الجنس البشري ولا يسلم إلا الآدميون المنحطون الهمج الذين في مجاهل افريقيا . وثم يعود الجنس البشري ينشىء من جديد مدنية جديدة... وانتظر بعدها أدهاراً حتى يصعد الى قمة مجده السابق وقد ينقرض ذلك الهمجي أيضاً ويفنى الجنس البشري برمته . فيقيم الله من طائفة النحل والنمل هيئة اجتماعية جديدة تنشىء مدنية جديدة، قد تكون أصلح من الهيئة البشرية

الانسان من القرد

س: هل تعتقدون بهذا الكفر: أن الإنسان تسلسل من القرد؟ وكيف توفقون بينه وبين الكتب المنزلة . وأين نقرأ عنه ؟ ولماذا ارتقى الإنسان ولم يرتق القرد ؟

حامد ابراهيم حسن: من برقة : ليبيا

ج. أما بلغ إليكم خبر هذا الكفر إلا اليوم وقد انتشر في جميع البلاد الراقية وأصبح حقيقة راهنة وصار كل ما ناقضه خطأً . الإنسان لم يتسلسل من القرد، ولكن الإنسان والقرد من أرومة واحدة كانت منذ ٢٥ مليوناً من السنين في رأي بعض الباحثين . فلما تنوعت الى قرود وأشباه قرود انقرضت . ألا ترى أن الطبيعة لا تزال تحفظ أنموذجات لهذه الأنواع . فعندنا الانسان الراقي كأنتَ وأنا مثلاً، ثم الإنسان المنحط الهمجي كإنسان أواسط أفريقيا، ثمّ الإنسان المتوحش، ثم الإنسان العاري الذي يأكل لحوم البشر، ثم الغول أو شبه الإنسان، ثم أنواع من القرود مختلفة ومتفاوتة في الذكاء الى أن تتصل بدرجات الحيوانات اللبونة فالفقارية الى آخره. كل هذه تريك عياناً أنها متسلسلة

أما أن القرود وسلالاتها لم تترقَّ كما ترقى الإنسان، فلأن البيئات التي عاشت فيها لم تساعدها على أن تترقى إلا بأقدار

أما التوفيق بين هذا الكفر والكتب المنزلة فيقتضي بيئة عقلية تفهم هذا التوفيق، لأن هذه العقيدة تسلسلت وارتقت كما تسلسلت تلك الحيوانات وارتقت . واعلم أن الذي كتب التوراة مثلاً لو تمهل وكتبها اليوم لكتبها بنص آخر، لكتبها كما يكتبها داروين، وهكسلي، وتجينز، وكيث، وما كنا نحسبها كفراً بل نحسبها تنزيلاً لأنها تعطينا علماً عن الطبيعة كما نظمها الله لا كما نظمها الجهل.

اقرأوا عن هذا الكفر كتابي داروين «أصل الأنواع» و «تسلسل الانسان» ثم كتاب هكسلي «مقام الإنسان في الطبيعة»، ثم كتاب السير ارثر كيث «قدمية الإنسان»، ثم كتابه الذي ظهر أخيراً «نظريات جديدة في الارتقاء البشري».

مكتبة المقتطف

على هامش الأدب والنقد

الكاتب النابغ الأستاذ علي أدهم من الكتّاب الذين لم يكتبوا كثيراً، ولكنهم كتبوا كتابات قيمة نادرة. كتب نحواً من ١٢ كتاباً في الأدب والتاريخ والاجتماع الى غير هذه، ربما كتب آخرون غيرها في نفس المواضيع ولكنهم لم يباروه في دراسة المواضيع والتعمق فيها، واصابة الغرض الأدبي أو العلمي أو التاريخي فيها. ومهما كنت قد طالعت واطلعت فاذا اطلعت على ما كتبه الأستاذ علي رأيت ان فوائد وأفكاراً ومباحث قد فاتتك فلقيتها فيما كتبه.

بين يدي الآن كتاب «على هامش الأدب والنقد». فاذا قرأت فيه فصل «فن كتابة التراجم» علمت أن بلوطارخس كان أول مترجم بارع للشخصيات، نبغ في النصف الثاني من القرن الميلادي، كتب عن أعيان الرومان واليونان فوضع درساً مفيداً للتراجم لا يزال الى اليوم يحتذى حذوه. ثم يعطيك أدهم سلسلة من المترجمين الذين نبغوا في التاريخ. ثم يبسط لك الأسلوب العلمي الذي ساد في القرن التاسع عشر، وكان له شأن في كتابة التراجم وفن القصة.

ثم يعطيك درساً في النقد الفني بين المذهبين الاجتماعي والفردي. ثم يأتيك بملخص مذهبي الفيلسوفين هيجل وشوبنهاور وغيرهما فكأنك تدرس فلسفة لا نقداً.

وهناك فصل عن الكتاب والكتّاب يهديك فيه الى ما تستفيده من الكتاب القيم ويعطيك قيمة قوة الكاتب الاجتماعية. وأثر التفكير العام ومكانة الكاتب الاجتماعية. فتعرف أي كاتب تقرأ وأي كاتب تهمل، ويفهمك أن الكاتب هو الذي يحترم قارئه ويقدم له كتابة يستفيد منها قارئها ويرى أنه لم يضع وقته عبثاً في قراءتها، وهو الذي يدع قارئه يراقب كل ما يصدر من قلمه. هكذا اذا قرأت أدهم سعيت الى كل كتاب يصدر منه.

وله فصل في النبوغ والعبقرية ننصح لك أن تقرأه لكي تعلم ما الفرق بينهما، فهو بحث شيق يغريك فيما يكتبه الأستاذ أدهم.

وله فصول أخرى في نقد المتنبي من نواحيه المختلفة المتعددة . وذكرت هذا الفصل القيم الذي يرجح على كل ما كتب عن المتنبي — ذكرته في « مجلة الرسالة » منذ صدوره في العام الماضي .

ثم له فصول أخرى في نقد بعض أدباء العرب والاسلام، ثم فصل خاص في نقد رابندرانات تاجور الشاعر الهندي الفيلسوف .

وليس المقام متسعاً بوصف محاسن نبوغ الأستاذ أدهم . ان أمثال أدهم قليلون بين كتابنا بل نادرون .

فيراتا — أو الهارب من الخطيئة

والأستاذ أدهم يوفر عنك عناء انتقاء الكتاب الذي يصح أن تقرأه من غير أن تضيع وقتك عبثاً . فهو يطالع كثيراً ويكتب قليلاً ، فقد قرأ الى اليوم ألف كتاب وكتب ١٢ كتاباً بعضها زبدة ما قرأ وبعضها منتقاة مما قرأ .

كتابه فيراتا مجموعة قصص وأساطير لكتّاب عالميين من أمم مختلفة ، ومن عصور مختلفة ، نخبة الأدب والتاريخ والقصص . كلمة قيمة عن استفان زيلج الكاتب النمساوي العظيم وأسطورته فيراتا، وهي كلمة أشغلت الأربعين صفحة الأولى من الكتاب، ثم قصص أخرى لكتّاب آخرين مشهورين من جنسيات مختلفة . فلا موجب لسرد هذه الفصول فاقرأها وسرّ واعجب . فهي معرض أدب وعلم بديع .

همجية التعاليم الصهيونية

بقلم الاب المحترم الخوري بولس حنا مسعد

هذا القس المحترم خرّيج جامعة الفاتيكان في رومه، وقد تثقف ثقافة عالية فدرس العلوم العليا جميعاً، وتمكن من اللغات اللاتينية والإيطالية والفرنساوية . وقد عثر في مكتبة الفاتيكان على التلمود اليهودي الأصلي (بعبله) بما فيه من مخازي ووساخات يقشعر لها بدن الإنسان المثقف وغير المثقف. فلخص هذه المخازي في كتيب بعنوان « همجية التعاليم الصهيونية » أو بالأحرى التعاليم اليهودية .

اليهود يضعون التلمود فوق التوراة ، والحاخام فوق الله (أستغفر الله) ، والله يقرأ التلمود وهو واقف على قدميه . وما يقوله الحاخام يفعله الله .

إن تعاليم اللاهوتيين في التلمود لهي أطيب من كلام الشريعة . والخطايا المقترفة ضد التلمود لهي أعظم من المقترفة ضد التوراة .

يقسم النهار الى ١٢ ساعة ، وفي الساعات الثلاث الأولى يجلس الله ويدرس الشريعة . وفي الساعات الثلاث الثانية يدين الشعوب ، وفي الساعات الثلاث الثالثة يغذي العالم . وفي الساعات الثلاث الأخيرة يلعب مع ملك الأسماك ، وملك الأسماك هذا طوله ثلاثمائة قدم يدخل الله في فمه فلا يتضايق .

ولكي تطلع على سائر أمثال هذا التجديف الذي لا تحتمله نفس بشرية يجب أن تطلع على هذا الكتاب الذي نحن بصدده ، فترى أقوالاً لا تخطر في بال المجانين والمخرفين والسكارى والأرذال ، والذين فقدوا الصواب والعقل والأدب والحياء بتاتاً . تجد هذا الكتيب في مكتبة العرب للبستاني في الفجالة .

—:—

أنفاس محترقة

ديوان للاستاذ محمود أبو الوفا — ١٧٨ ص . من الحجم المتوسط — مطبعة مصر

أبو الوفا شاعر الحياة ، شاعر الطبيعة ، شاعر الجمال في جوهره المصفّى ، شاعر النبع إذ يتدفق ماؤه ، والهزار إذ يشدو شدوه ، والحبّ إذ تهفو إليه وبه القلوب ، والوفاء إذ تزكيه المحبّة الخالصة .

إنه شاعر يحبّ أن يضحك للدنيا ، يحب الشمس تبقى لاتبرح سماها يوم لقيا المحبّين ، يحب لهذه الأنهار ان تجري إلى ما ليس له حدود ، يحب الدنيا تغدو ملاعب للهوى ، يحب البدر لا يغشاه السحاب ، والصبح لا يلطمه الضباب ، وفؤاد الصب لا يعرف المشيب .

هذه طبيعة الشاعر « محمود أبو الوفا » ، وهي طبيعة مسماحة رائقة ساذجةٌ في براءتها وإخلاصها ، ضالعة في صدقها وإصالتها ، بعيدةٌ عن مأتى الأوشاب ولوثات الهوان . طبيعةٌ صافيةٌ عن سجيّة ، ودود عن سليقة ، حلوةٌ في غير تكلف أو إدّعاء وفي غير

بهرج أو تزاويق ، طبيعة منبثقة من قلب نابض محمول على الكف كأنه في سوق ينادي من يطلبه .

أمشي وقلبي على كفّي أقول : ألا   من راغب في فؤادٍ صادق حانِ ؟
يحبّ حتى كأن الأرض ليس بها   إلاّ زنابق من آسٍ وسوسان
وليس في الأرض من بُغضٍ ومن إحن   وليس في الأرض من ظلمٍ وطغيان
وليس من فوقها إلاّ سواسية   من الصحاب ومن أخدان أخدان

ولكن ما جزاء هذا القلب الصادق الحاني ، وما جزاء هذا الحبّ الدفّاق السخي ، وما كفاء هذا الشعور الكريم المطلق ؟

جزاؤه كما يقول الشاعر :

فلا وربِّك ، هذا القلب ما التفتت   عينٌ إليه ، فيا للبائس العاني ؟

وكما يقول في موضع آخر

أحب أضحك للدنيا فيمنعني   أن عاقبتني على بعض ابتساماتي

وفي غيرهما من ديوانه « أنفاس محترقة » يقول :

أينما سرتُ لم أجد غير همٍّ   كامنٍ في الثياب أو هو بادي
أينما سرت لا أرانيَ إلاّ   خائضاً في اللظى وشوكِ القتاد
في بيوت العمّال ألقى دخاناً   من حريقِ الآلام للأكباد
زفرات كأنهن قلوبٌ   ذوّبتها حرارة الإجهاد

ويقول في موضع آخر :

قضى زماني عليَّ أني   أمشي ورجلاي في القيود
حالٌ بها في خطاي يمشي   ذلّ الأسير الخطى المقود
ويلاه مما لقيت منها   ويلاه للسيّد المسود
ظلمٌ ، ولكن أنسى قضاني   بل أين لي فيه بالشهود
من مثله لم يزل لعيسى   دمٌ على مذبح اليهود
يا ربّ فيمَ الوجودُ إذا لم   تمنحه حرّية الوجود ؟

فطبيعة الشاعر « محمود أبو الوفا » ذات نقاوة وذات جلاء وذات رغبةٍ أكيدة في أن ترتع في بحبوحة من الهناءة السابغة . ولكن الطبيعة التي تحيط بتلك الطبيعة ليست هكذا ، ولا هذا شأنها . لأن الدنيا حافلةٌ بألوانِ الضنى ، وفيها من صنوف الألم ما يغري بالضلال ، ولأن الحياة الدنيا ليست مهيأة للحياة الكريمة الخالية من أدران السَّفَهِ وتجاريب المحن ، ولأن الناس يعملون لأنفسهم ، ويسعون لأكل الحلال وأكل الحرام ويسيرون بالنميمة والوقيعة ، ويماشون البهيمة في أهواء نفسها العجماء

فالشاعر معذورٌ إذا اجتمعت عليه النوائب ، فأكرهته على البوح بما قد لا يبوح به لدفين مشاعره ، وهو لا يستأهل لوماً ولا تثريباً إذا استبدَّ به انفعال العاطفة الحزينة فتدفق من حشاشته شعراً دامياً ثائراً يقول فيه :

كأنني فكرةٌ في غير بيئتها   بدَتْ ، فلم تلق فيها أي إقبال
أو أنني جئت هذا الكون عن غلطٍ   فضاق بي رحْبُهُ ، المأهول والخالي
أبي وفي النار مثوى كل والدةٍ   ووالدٍ أنجبا للبؤس أمثالي
خلّفتني فوضعتَ الحبل في عنقي   تشدّه كفُّ دهرٍ جِدُّ ختّال
ما كان ضرُّك لو من غير صاحبةٍ   قضيتَ عمرك شأن الزاهد السالي ؟

ماذا يفعل الشاعر ، وهو صاحب نفس شديدة الحسّ سريعة الانفعال ، إذا استبان له أن الحياة تدبر من حيث هو يقبل ، وأن البسمة المشرقة تقابل بجهامة موحشة ، وأن ايقاد مصباح ، يُطفأ في غلس الليل ؟ ماذا عليه لو فرّج عن كربه ، وروّح عن ضيق نفسه بتلك القصائد يختلسها من فلذات كبده المقروحة ، عساه يلتمس السلوى ، وينال من مشاركة الآخرين رضاً داخليًا .

ديوان « أنفاس محترقة » هو زفرات حرّى يطلقها شاعر الحب والجمال والفتنة والسحر محمود أبو الوفا ، يطلقها من بعض نفسه ، ومن خلجات فؤاده ، ومن نبضات قلبه . يطلقها وهو يرجو للحياة حولاً عن طريق العوج ، وهو ينشد لها اتجاهاً صوبَ معارج الكمال ، وهو يريد ويريد ، ولكن :

أريد وما عسى تجدي « أريد »   على من ليس يملك ما يريد ؟

أريد العيش ـ مثل الطير ـ حرًّا   طليقاً لا تغلّه القيـود
أريد أفك عن نفسي قيوداً   يقاد بها على الخسف العبيد

إذا كانت هناك متاحف للآثار، ومعارض للمنتجات، فان ديوان «أنفاس محترقة» هو معرض للنفس، فيه بسط الشاعر أبو الوفا نفسه في غير تحفظ ولا تحرّج، فخرج ـ كدأب الشاعرين ـ عن وقار الكتمان والادعاء الى مجال الابانة الفصيحة. فقال كل ما أراد أن يقول، وأعرب عن كل رأي ارتأى أن يعرب عنه، وفرح ما شاء له أن يفرح، وبكى وأبكى ما طاب له أن يفعل بنفسه وبقرّاء شعره. وهام بك مع الطيور حيث تحلق في أجوائها، ثم نزل بك الى أرضٍ ونارٍ ذات وقود. تمنّى أن يكون إلهاً، وودّ لو ألقيت إليه مقاليد الحياة، وبغى أن يصبح الحبّ بين الناس دستوراً في معاملاتهم وأخذهم وعطائهم، ونشد أن يؤدي في الحياة رسالة «هي الحب، حتى ليس للحبّ مانعُ»

هذا شاعرٌ يضرب على الأوتار نغماً شجيًّا، ويهصر قلبه هصراً ليقدم ذوب نفسه في ديوانٍ مطبوع منشور. ويكدّ في الشعر كما يكدّ الناس في الحياة، ليرضي نفسه المتطلعة الى خير المُنَى.

إنه شاعرٌ صارخٌ في صدقه، ممعن في إخلاصه، إذا أحب عاش للحب يرنم له مثنى وثلاث ورباع فيقول:

أحببتها، أحببتها، أحببتها   وأحبُّ في الأيام يومَ رأيتها
وودت لو أني جمعت لها المنى   وأتيت بالدنيا لها ووهبتها

وهو شاعرٌ جهير، عريقٌ غنيٌّ بالمعاني لا يحار في طِلاَبها، قوي الديباجة أنيقٌ في لفظه، ومراعاة حسن توافق العبارات، موسيقي الشعر حتى ليلهث معه القارىء في خطوه العجلان، يشجيك أن تسمعه وأن تعاود الإصغاء إليه.

إنه محمود أبو الوفا، صاحب «أنفاس محترقة» وهي درّة لم تجىء على غرّة.

وديع فلسطين

فهرس الجزء الثاني

من المجلد السادس عشر بعد المئة

٦٥ السر أرثر كيث
٦٦ مصر مهد الأمة الأولى والحضارة الأولى : للسير أرثر كيث
٧٠ العقل حركة في خليات الدماغ
٧٣ العزلة في رأس الجبل
٨١ ملحمة العصر : ميراث الشباب للمشيب
٨٧ مشاجرة بين أحياء وأموات ، وملاك يتدخل
٩٢ بقاء الأصلح
٩٤ نظرات في النفس والحياة — نظرات جوته : ع . ش
٩٧ صفحة طويت : علي مصطفى مشرفة باشا : وديع فلسطين
١٠٠ الأديان في فطرتها : وديع فلسطين
١٠٧ خلود الحياة في فلسفة اقبال : ترجمة محمد حسن الأعظمي والشيخ الصاوي شعلان
١١٤ حقوق المرأة غير مساواتها للرجل : روز أنطون حداد
١١٧ جاليليو جاليلي : العلم يعتقل
١٢١ باب الزراعة والاقتصاد * انتفاع الزراعة بالذرة : عوض جندي
١٢٥ باب المسائل والاجوبة * ثدي الرجل . كيف ينتهي العالم . الانسان من القرد
١٢٨ مكتبة المقتطف * على هامش الادب والنقد . فيراتا او الهارب من الخطيئة . همجية العالم الصهيونية . أنفاس محترقة

في مقتطف مارس

العدم
ما يعرف وما لا يعرف
مصر : مهد الامة الاولى
القادر على كل شيء

العشائر البدوية
الزراعة
البترول في الشرق الاقصى
انفاس محترقة

ليت الشباب يعود — رواية عجيبة